

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب التاسع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب التاسع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾)

المفـردات :

(وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا) أى : من أوعيتها .

(أَكْمَامِهَا) : واحدها كِمْ - بالكسر فالسكون - وهو وعاء الثمرة قبل أن ينشق عنها ، وتسمى الثمرة حينئذ الكُفُرَّى .

(قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّاكَ) أى : أخبرناك وأسمعناك .

(مَا مِنَّا من شَهِيدٍ) أى : ليس مِنَّا مَن يشهد بأن لك شريكا .

(وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) أى : أيقنوا وعلموا بأنه لا فرار لهم من النار .

التفسـير

٤٧ - (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) :

أى: إذا سئل أحد عن الساعة قال : الله - تعالى - يعلم ، أو لا يعلمها إلا الله - عز وجل - وقد سئل عنها الرسول وهو سيد البشر من جبريل وهو من سادات الملائكة ، فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . كما قال - تعالى - : « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا »[1] وكما أنه - سبحانه - اختص

(١) سورة النازعات الآية رقم ٤٤ .

بعلم وقت قيام الساعة فقد اختص كذلك بعلم مايخرج من ثمرات من أوعيتها قبل أن تنشق عنها ، وقرىء (من ثمرة) على إرادة الجنس . أما الجمع فلاختلاف الأنواع.

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) أى : وما يحدث من شىء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ولا وضع واضع ، أى : ما يحدث شىء من ذلك إلا ملابسا بعلمه - تعالى - واقعا حسب تعلقه به من عـدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من النقص والتمام والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح ، والسعادة والشقاء ، وذكرت هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة فإنه لا يعلم هذا كله إلا الله - تعالى - .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى) أى : واذكر يوم ينادى الله المشركين على رءوس الأشهاد قائلا: أين شركائى بزعمكم الذين عبدتموهم فى الدنيا . وفيه تهكم بهم ، وتقريع لهم.

(قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّاكَ) أى : قال الذين نودوا : أسمعناك وأخبرناك .

(مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) أى : ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينّا الحال ، أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم حينئذ .

٤٨ - (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) أى : وغاب عنهم ما كانوا يدعونهم من قبل فى الدنيا للعبادة ، ويرجون نفعهم ، على أن الضلال بمعناه الحقيقى وهو الذى يقابل الوجدان ، أى : لم يجدوهم حينما طلبوهم للاستنصار بهم أو ظهر لهم عدم نفع شركائهم ، وكان حضورهم كغيبتهم ، على أن الضلال مجاز عن عدم النفع ، وأيقنوا ما لهم من مهرب من عذاب الله ونكاله كما قال السدى وغيره . فالمراد بالظن هنا العلم ، وكونه بمعنى العلم يقع كثيراً ، وقد جاء به القرآن فى مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ اللَّهِ . . . . »[1] أى : يعلمون ويوقنون .

---

(١) سورة البقرة من الآية رقم ٢٤٩

(لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(لَا يَسْئَمُ الْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ) أى : لا يمل ولا يفتر من طلب الخير كالمال والصحة والولد .

(وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ) : كالفقر والمرض وعدم الإنجاب .

(فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) من فضل الله ورحمته ، واليأس : صفة القلب ، والقنوط : يأس مفرط يظهر أثره على المرء فينكسر ويتضاءل .

(إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ) أى : الجنة .

(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) أى : بالغ الغاية فى الشدة كأنه مُحَسٌّ مشاهد على صورة غليظة .

(وَنَئَا بِجَانِبِهِ) أى : تباعد عن ذكر الله ودعائه ، أو هو جانبه كناية عن الانحراف والتكبر والصلف .

(فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) أى : كثير مستمر ، مستعار مما له عرض متسع ، وذلك للإشارة إلى كثرته .

التفسير

٤٩ - (لَا يَسْئَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) :

الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وقيل : فى عتبة بن ربيعة ، والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

ومعناها : لا يسأم الإنسان - أى : الكافر - من دعاء أنواع الخير كالصحة والمال وكل مقاصد النعيم ، وإن نزل به شر من مرض أو عسر فهو يئوس من فضل الله قنوط من رحمته ، وقد بولغ فى يأسه من جهتين : من جهة الصيغة لأن (فعولا) من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوى فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثر اليأس ظاهرا عليه لا يفارقه كان فى ذكر القنوط ذكرٌ لليأس ثانياً بطريق أبلغ فى قطع الرجاء من فضل الله ورحمته .

وهذه الآية تعيب على الإنسان يأسه وقنوطه من رحمة الله ، وتحمله على الرجاء وعلى الدعاء بدفع الضر عنه .

وقدم اليأس لأنه صفة القلب التى تدعو اليائس إلى أن يقطع رجاءه من الخير ، وهى المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار ، ثم يجىء القنوط بعد اليأس ليزيد أثره على الوجه ، فهو من باب التدرج من الأدنى إلى الأعلى .

٥٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) :

المعنى : أن هذا الإنسان إذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق ليقولن بصفة التأكيد والوثوق : هذا شىءٌ أستحقه على الله لرضاه بعملى ، أى : هذا حق وصل إلىّ لأنى استوجبته بما عندى من فضل وخير وأعمال بر ، فيرى النعمة حقًّا واجباً على الله له ، ولم يعلم أنه ابتلاء بالنعمة والمحنة ليتبين شكره وصبره . وقال ابن عباس : معنى (هذا لى) أى : هذا من عندى بمعنى لا يزول عنى أبداً .

(وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً) فيما سيأتى (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ)-كما يقول المصدقون بالبعث - إن لى عنده لَلْجنةأو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة بقياس أمر الآخرة على أمر الدنيا .

(فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ) : يتهدد الله - تعالى - من كان هذا عمله واعتقاده بكشف مستور أمره ،أى : فلنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ، ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا . فيظهر أنهم مستحقون فيها للإهانة لا للكرامة التى توهموها وأشادوا بها ، ولنذيقنهم من عذاب شديد لا يقادَرُ قدرُه ولا يُحَدُّ مداه ، فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه ولا يتسنى لهم التقَصِّى منه .

٥١- (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) :

ضرب آخر من طغيان الإنسان ،أى : وإذا أنعمنا عليه أعرض عن الشكر وذهب بنفسه وتباعد بكليته صلفاً وغروراً . والجانب مجاز عن النفس كقوله - تعالى - : « يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللهِ »[1] ويجوز أن يكون المراد بجانبه عطفه ويقصد الانحراف والازورار كما قالوا : ثنى عطفه وتولى بركنه .

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ) : أى الضرر أو الفقر .

(فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) أى : كثير مستمر ،بمعنى أنه أقبل على الدعاء الدائم ، وأخذ فى الابتهال والتضرع ، وقد استعير العَرْض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب ، ولا منافاة بين قوله (فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) وبين قوله : (فَذُودُعَآءٍ عَرِيضٍ) مع أن كلا عند مس الشر ، لأن الأول فى قوم، والثانى فى قوم آخرين ،أو يئوس قنوط بالقلب ، وذو دعاء عريض باللسان .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٥٦

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أى : فى خلاف بعيد عن الحق كل البعد

(سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ) أى : سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا فى الآفاق جمع أفق – بضمتين أو بفتحتين – وهى : النواحى عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها .

(وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، أو بما يحدث لهم من البلايا والأمراض وحوادث الأرض .

(أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ) أى : فى شك من أمر البعث .

(بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) أى : بكل شىء فى الدنيا والآخرة محيط ، فلا يفوته شىء .

التفسير

٥٢ – (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) : هذه الآية وما بعدها رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين ، وختم للسورة .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : إن كان من عند الله ثم جحدتم به مع تعاضد الأدلة والبراهين التى هى من موجبات الإيمان به – قل للمشركين المكذبين – إن كان هذا شأنه فأخبرونى .

(مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أى : من أضل منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير شرحًا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم ، حيث إنهم فى خلاف بعيد غاية البعد عن الحق .

٥٣ ـ (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) :

المعنى : سنريهم فى الآفاق آياتنا الدالة على حقية القرآن وكونه من عند الله . وفسرت الآيات بما أُخبر به النبى ﷺ من الحوادث الآتية ، وآثار النوازل الماضية وما يسّر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا ، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة . كما سنريهم آياتنا فى أنفسهم فيما ظهر بين أهل مكة خصوصاً وما حل بهم وقيل فى الآفاق ، أى : فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار . والأضواء والظلال والظلمات ، ومن النبات والأشجار والأنهار ، وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، نفعل ذلك معهم حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحقُّ الذى لا شك فيه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كلُّه من عند الله المطلع على كل غيب وشهادة ، ولهـذا نصر حاملوه وكانوا محقين ، وفى تعريف الحق من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدراً ، والتعبير بقوله : (سَنُرِيهِمْ) إشارة إلى أنه تعالى لا يزال ينشئ لهم فتحاً بعد فتح وآية غبَّ آية إلى أن يظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون .

(أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) : استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقِّية القرآن ، أو لم يكفهم فى ذلك أنه ـ تعالى ـ شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده .

« لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ »[1]

---

(١) سورة « النساء » من الآية ١٦٦

٥٤ - (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) :

أى : ألا إنهم فى شك عظيم من لقاء ربهم بالبعث لاستبعادهم إعادة الموتى بعد تحليل أجزائهم وتفرق أعضائهم مع أن الله على كل شىء قدير ، فهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة لتجزى كل نفس بما كسبت « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » .

(أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) أى : ألا إن ربهم عالم بجميع الأشياء على أكمل وجه فلا تخفى عليه - عز وجل - خافية فيجازيهم على كفرهم ومريتهم فى لقاء ربهم ، وفى الآية دفع لشكهم فى إعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم إمكان تمييزه ، أى : أنه عالم بمجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، مقتدر عليها لا يفوته شىء منها فهو - سبحانه - يعلم الأجزاء ويجمعها بعد أن تفرقت وصارت عظاماً ورفاتاً « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] .

وعلماء التوحيد فى ذلك على رأيين ، أحدهما : ما ذكر هنا ، والآخر : أنه - تعالى - يعيد الخلائق بخلق جديد ، لأن أجزاءهم دخلتْ بعد تحللها فى تكوين خلائق أخرى ، جيلا بعد جيل .

ويقولون : إن النعيم والعذاب للروح ، وأما الجسد فهو وعاؤها ، والكسب إنما هو بها لابوعائها ، فلولا الروح لما استطاع الجسد أن يعمل شيئا ، وفى ذلك يقول صاحب الجوهرة :

وقُل : يُعاد الجسم بالتحقيق   عن عدم ، وقيل : عن تفريق

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٢٩ .

« سورة الشورى »

هذه السورة : مكية وآياتها ثلاث وخمسون ، وسميت الشورى لوجودها فى آياتها لإرشاد المؤمنين إلى السير فى تصريف مجتمعهم على أساسها ، ومناسبة هذه السورة للتى قبلها : اشتمال كل منهما على ذكر القرآن ودفع طعن الكفرة فيه ، وتسلية النبى ﷺ بما ذكر فيهما من آيات تبين نصر المؤمنين وخذلان الكافرين والجاحدين .

اهم مقاصد السورة :

١ ـ افتتحت بالتنويه بشأن القرآن بأنه وحى من عند الله ، وكذلك كانت كتب الأنبياء السابقين .

٢ ـ أشادت بقدرة الله ، وأنه ـ سبحانه ـ لا يخرج عن سلطانه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

٣ ـ بينت أن السموات تكاد أن يتشققن من فوقهن لعظمة الله ، وكمال الخشية منه .

٤ ـ هددت الذين اتخذوا من دونه أولياء بأن الله حفيظ عليهم ليجازيهم بما اقترفوا .

٥ ـ أشارت إلى أنه ـ تعالى ـ لو شاء أن يجمع الناس على ملة واحدة لجمعهم ، ولكن الحكمة اقتضت أن يكون منهم المهتدى والضال .

٦ ـ أرشدت إلى مايفعله المؤمنون مع المشركين إذا خالفوهم فى الدين .

٧ ـ أشارت إلى القدرة البالغة فى أنه جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ، ومن الأنعام أزواجا .

٨ ـ أكدت وحدة الشرائع .

٩ ـ نددت بشرك المشركين واختلافهم فى الحق ظلمًا بعد أن أمروا بإقامة الدين وعدم التفرق فيه .

١٠ ـ بينت أن الذين ورثوا الكتاب من أسلافهم وأدركوا عهد الرسول لفى شك من كتابهم موقع فى الريب ، وسيأتى تفسيره .

١١ ـ أرشدت إلى ما يجب اتباعه فى دعوة الناس إلى الحق .

١٢ ـ بينت بطلان حجة الذين يجادلون فى الدين من بعد ما استجاب الناس لدعوته .

١٣ ـ ذكرت أن الذين يستعجلون الساعة هم الذين لا يصدقون بها ، أما الذين صدقوا بها فهم خائفون من وقوعها .

١٤ ـ أبرزت لطف الله بعباده حيث يرزق من يشاء كما يشاء بدون معقب له .

١٥ ـ حذرت من الانهماك فى طلب الدنيا حيث تكون عاقبته الحرمان من الآخرة .

١٦ ـ بينت سوء حال الجاحدين يوم القيامة ، وأنهم مشفقون مما كسبوا وهو واقع بهم . كما بينت حال المؤمنين ، وأن لهم ما يشاءون عند ربهم .

١٧ ـ نددت بادعاء المكذبين على رسول الله ﷺ أنه افترى على الله كذبًا وردت ذلك الافتراء .

١٨ ـ بددت يأس اليائسين حيث أبانت أن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

١٩ ـ ذكرت الحكمة فى توزيع الرزق بين الناس بتدبير محكم ، فلم يكونوا جميعًا أغنياء ، ولم يكونوا فقراء ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا .

٢٠ ـ أشارت إلى عظم بركات الغيث ، ودلائل قدرة الله على خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة .

٢١ ـ ذكرت أن من آيات القدرة السفن الجوارى فى البحر كالأعلام إن يشأ تهب الرياح فتسيرها ، وإن يشأ يجعلها ساكنة ، فتظل ثوابت على وجه الماء ، أو يهلكهن بذنوب ركابها .

٢٢ ـ أعادت تهديد المجادلين ، فذكرت أنهم فى علم الله ، ليس لهم من عقابه مهرب .

٢٣ ـ عددت أوصاف المؤمنين ، ومن بينهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقهم الله ينفقون ، وذكرت أن لهم ما هو خير وأبقى عند ربهم .

٢٤ ـ دعت إلى عدم قبول الذلة ، ودلّت على أن الانتصار ـ بعد الظلم ـ أمر مشروع : (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) [١] .

٢٥ ـ دعت إلى الصبر والمغفرة (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [٢] .

٢٦ ـ بينت حال الظالمين حين يرون العذاب ، كما بينت حالهم حين يعرضون على النار ، وسجلت قول المؤمنين فى الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، : (أَلَآ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ) [٣] .

٢٧ ـ حثت على الاستجابة قبل فوات وقتها (اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ) [٤] وهددت من لا يستجيبون لله ورسوله (مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) [٥] .

٢٨ ـ دعت الرسول إلى عدم الحزن على المعرضين لإعراضهم عن الاستجابة : (فَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) . [٦]

٢٩ ـ عنيت بتسلية الرسول ﷺ ببيان أن الحق لله فى هبة الإناث لمن يشاء والذكور لفريق آخر ، والجمع بينهما لفريق ثالث ، وحرمان فريق رابع منهما .

٣٠ ـ ذكرت طرق خطاب الله تعالى لأنبيائه وعباده .

٣١ ـ ختمت السورة ببيان أن مثل ما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك هذا القرآن ، وهو روح من أمر الله جعله نوراً يهدى به من يشاء من عباده (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) [٧] .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤١
(٢) سورة الشورى الآية ٤٣
(٣) سورة الشورى من الآية ٤٥
(٤) سورة الشورى الآية ٤٧
(٥) سورة الشورى من الآية ٤٧
(٦) سورة الشورى من الآية ٤٨
(٧) سورة الشورى من الآية : ٥٢ والآية : ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حم (١) عسق (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦))

المفردات :

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ) أى : يتشققن من عظمة الله وجلاله وقيل : من ادعاء الولد له .

(مِن فَوْقِهِنَّ) أى : يبتدئ التشقق من أعلاهن .

(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ) أى : يسألون الله أن يغفر للمقصرين فى الأرض من المؤمنين .

(وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) أى : بموكل بهم أو بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار .

التفسير

١ ، ٢- (حم * عسق) : هما اسمان للسورة ولذلك فصلا فى الخط وعدا آيتين. وقيل : هما اسم واحد وآية واحدة والفصل بينهما ليناسب مفتتح سائر الحواميم قبلها وبعدها حيث

رسم مستقلا فى السور المفتتحة بحروف الهجاء وقيل : إن أجزاءهما أسماء لحروف هجائية ، والمراد بها تحدى العرب أن يأتوا بسورة مثله لأنه مؤلف من كلمات ذات حروف هجائية مثلما يتكلمون وينطقون ، فليأتوا بمثله إن كانوا صادقين ، وقيل : غير ذلك . والكلام فى إعرابها وفى معناها قد مضى فى مثله من سورة البقرة وغيرها ، وحسبك هنا ماتقدم .

٣ - (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق ، أى : مثل ما فى هذه السورة من المقاصد أوحى إليك فى سائر السور وأوحى إلى من قبلك من الرسل فى كتبهم وصحفهم ، من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وإلى ما فيه صلاح العباد ، أو مثل إيحاء هذه السورة أوحى إليك سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم كما فى قوله -تعالى- : « إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ »[1] . الآية ، ومناط المثلية كونه بطريق المَلَك ، وفى جعل هذه السورة أو إيحائها مشبها به من تفخيمها والتنويه بها ما لا يخفى ، وخلاصة ما تشير إليه الآية : أن الله ذكر معانى هذه السورة فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية لما فيها من الإرشاد إلى الحق ، وهو العزيز فى انتقامه الحكيم فى أقواله وأفعاله .

٤ - (لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) :

استئناف مقرر لعزته -تعالى- وحكمته -عز وجل- فى قوله -سبحانه- : (اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) من الآية السابقة أى : لله وحده ما فى السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتدبيرا وهو العلى العظيم شأنه العظيم برهانه .

٥ - (تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

الآية واردة للتنزيه بعد إثبات الملكية والعظمة لله -تعالى- فى الآية السابقة أى : تقرب السموات أن يتشققن من أعلاهن مع عظمتهن وتماسكهن خشية من الله وتأثرا بعظمته وعلو شأنه وروى ذلك عن قتادة ، وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : تكاد السموات يتشققن من الثقل لكثرة ما على السماء من الملائكة . قال -عليه السلام- : « أَطَّتِ

---

(١) سورة النساء من الآية ١٦٣

السماء أطًّا وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد » والتشقق يحصل من أعلاهن بسبب ذلك ، وقيل : من ادعاء الشريك والولد لله –سبحانه– كما في سورة مريم « تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا »(1)

وأيد هذا بقوله –تعالى– بعد : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » وكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن ، أي : من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر ، لأنها جاءت من الذين تحت السماء ، ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق . كأنه قيل : تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، أما الجهة التي تحتهن فحصوله بطريق الأولى .

(وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) خضوعاً لما يرون من عظمته ، وتنزيها عما لا يليق به ملتبسين بحمده . وقيل : يتعجبون من جرأة المشركين ، فذكر التسبيح موضع التعجب وعن علي –رضي الله عنه– أن تسبيحهم تعجب مما يرون من تعرض المشركين لسخط الله (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ) بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة ، واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً في إيمان الكافر . وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر ، وقال السدي وقتادة : المراد بقوله : (لِمَن فِي الْأَرْضِ) المؤمنون لقوله – تعالى – في سورة غافر : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »(2) وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش ، وقيل المراد جميع ملائكة السماء وهو الظاهر من قول الكلبي ، وحيث خص من في الأرض بالمؤمنين فيكون المراد من الاستغفار الشفاعة ، أو حقيقة الدعاء .

(أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته –تعالى– وإنه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وفيه إشارة إلى قبول استغفار الملائكة – عليهم السلام – وأنه – سبحانه – يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة والرحمة مع زيادة تقرير لعظمته تعالى ، وبيان لكمال تقدسه عما نسب إليه بترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه

---

(1) سورة مريم الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ (2) سورة غافر من الآية ٧

٦ـ (وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

أى : والمشركون الذين جعلوا لله أندادا وشركاء يعبدونهم من دونه. الله ـسبحانهـ رقيب على أحوالهم وأعمالهم يحصيها عليهم ، ويعدها عدا ليجزيهم عليها . وما أنت ـأيها الرسولـ بموكل بهم ، أو بموكول ومفوض إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك الإنذار والبلاغ فحسب .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أى : أنزلناه عربيا بلسان قومك .

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ) : وهى مكة ، والإنذار يتعدى إلى مفعولين ، وقد يستعمل ثانيهما بالباء .

(وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) : وهو يوم القيامة .

(لَا رَيْبَ فِيهِ) أى : لا شك فيه . (وفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : فى النار ولهيبها .

التفسير

٧ـ (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : ومثل هذا الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا إبهام عليك ولاعلى قومك .

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) أى : لتنذر أهل أم القرى وهى مكة ، وتنذر من حولها من سائر الخلق شرقا وغربا . وسميت مكة أم القرى لأن فيها البيت الحرام الذى يحج إليه أهل القرى العربية ، ولهذا كان فراق الرسول حين هاجر منها صعبا على نفسه ، روى الإمام أحمد بسنده : أن عبد الله بن عدى بن الحمراء أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة : « واللهِ إنكِ خيرُ أرضِ اللهِ وأحبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ ولولا أنى أُخرِجتُ مِنْكِ ما خَرَجْتُ » وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح . لهذا الفضل استحقت أن نسمى أُمًّا (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) وهو يوم القيامة ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد كقوله ـ تعالى ـ : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ »[1] وفى العبارتين : (لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) احتباك فقد حذف من الأولى ما أثبت فى الثانية ، و حذف من الثانية ما أثبت فى الأولى ، أى : لتنذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع تنذر يوم الجمع أم القرى ومن حولها ، ثم قرر ذلك بقوله : (لَا رَيْبَ فِيهِ) أى : لا شك فيه .

(فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : هذا التفريق بعد جمعهم فى الموقف . فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب ، منهم فريق فى الجنة ومنهم فريق فى النار المستعرة . والجملة استئناف فى جواب سؤال تقديره : ثم كيف يكون حالهم ؟ فيجاب بما ذكر .

٨ ـ (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » :

أى : ولو شاء الله لجعلهم فى الدنيا أهل دين واحد ، ولكنه ـ سبحانه ـ أراد أن يدخل فى رحمته ـ وهى الإسلام ـ من يشاء أن يدخله فيه ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته ـ تعالى ـ لكل من الإدخالين لاستحقاق كل من الفريقين أن يدخل مدخله تبعا لاختيار

(١) سورة هود من الآية ١٠٣

الداخلين فيهما قطعا ، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين تبعا لاختيارهم بعد ما أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله -تعالى- إلى الإيمان والطاعات ، ويدخلهم فى رحمته -عز وجل- ولا يتأثر به الآخرون ، ويتمادون فى غيهم ، فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه من الكفر ، فينتهون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب ، قال مقاتل : ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، أى : مؤمنين كلهم على دين الإسلام كما فى قوله -تعالى- : (وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) أى : ولو شاء الله جعلهم أمة واحدة . لقسرهم على الإيمان ، ولكن الله -تعالى- بنى أمرهم على أن يختاروا ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله -تعالى- : (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ) ويعذب الكافرين الذين ظلموا أنفسهم وقيل فى ختام الآية : (وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ولم يقل : ويدخل من يشاء فى عذابه للإيذان بأن الإدخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته تعالى ، كما فى الإدخال فى الرحمة ، على أن ذلك أبلغ فى تخويفهم لإشعاره بأن كونهم فى العذاب أمر مفروغ منه إنما الكلام فى -أنه بعد تحتمه- هل من يخلصهم بالدفع أو بالرفع ، فإذا انتفى ذلك علم أنهم فى عذاب لا خلاص منه حيث لا ولى يتكفل بحمايتهم ولا نصير ينقذهم .

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ) أى : بل اتخذوا أصناما وأوثانا يلون أمورهم .

(وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ) أى : عند البعث .

(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أى : أن غيره من الأولياء لا يقدر على شىء .

التفسير

٩ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

جملة (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ) مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير .

أى : بل أتخذوا -مجاوزين الله - أولياء من الأصنام وغيرها ، و (أم) منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، وهى لاستنكار اتخاذهم الأولياء واستقباحه ونفيه على أبلغ وجه وآكده ، إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الأولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء ، وهو أظهر الممتنعات (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ) كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه : إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولى . لا غيره -عز وجل- (وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ) عند البعث (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فهو الحقيق لذلك بأن يتخذ وليا . فليخصوه بالاتخاذ دون غيره .

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾)

المفـردات :

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ) أى : وما خالفكم الكفار والمشركون فى الدين أو ماحدث بينكم فيه خلاف .

(إِلَيْهِ أُنِيبُ) : أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأُمور .

(فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقها ومبدعها على غير مثال ، يقال : فطره من- باب نصر - ابتدأه واخترعه .

(يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) : يكثركم بسبب هذا التزاوج بين الذكور والإناث ، يقال : ذرأ الشىء كثَّره وفرقه .

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : له مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن ، والمقاليد : جمع مِقْلاد أو مقليد .

(وَيَقْدِرُ) أى : يضيق ويقتر على من يشاء .

التفسـير

١٠ - (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) :

حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين ،أى : ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب ، والمشركون فى شىء من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم فيه كاتخاذ الله وحده وَلِيًّا . فقولوا لهم : حكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله لا إليكم ، وقد حكم بأن الدين هو الإسلام لا غيره ، وأُمور الشرائع إنما تتلقى من بيان الله - سبحانه - الذى تكفل بإثابة المحقين من المؤمنين ومعاقبة المبطلين (ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّى) الإشارة إليه - تعالى - من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قال الطيبى : من كونه - تعالى - يحيى الموتى ، وكونه على كل شىء قدير ، وكونه - عز وجل - ما اختلفوا فيه فحكمه إليه (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أى : عليه لا على غيره توكلت فى كل أُمورى ، وإليه أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأُمور لا إلى أحد سواه .

وقيل : المعنى : وما اختلفتم وتنازعتم فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره ، وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة

رسول الله ﷺ وحيث كان التوكل على الله أمرا واحدا مستمرًا والإنابة إليه متعددة متجددة حسب تجدد موادها. أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع . فقيل : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

١١ - (فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

أى : ذلكم الله ربى هو خالق السموات والأرض ومبدعهما خلق لكم من جنسكم أزواجًا ، وخلق للأنعام أيضا من جنسها أزواجا ، أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا وخلق لكم من الأنعام أزواجا (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) أى : يكثركم ويزيدكم فيما ذكر من التدبير ، وهو أن جعل - سبحانه - للناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد وتناسل . أوجعل التكثير فى هذا الجعل لوقوعه بسببه ، والضمير فى (يَذْرَؤُكُمْ) يرجع للمخاطبين والأنعام بتغليب المخاطبين العقلاء على الغُيَّب مما لا يعقل (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) نفى للمشاركة فى كل شأن من الشئون التى من جملتها هذا التدبير البديع السابق ، والمراد نفى أن يكون مثله - سبحانه - شىء يزاوجه - عز وجل - وهو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها .

والمعنى : ليس كذاته شىء بإرادة الذات من (المثل) كما قيل ، وعلى هذا لا فرق بين (ليس كذاته شىء) وبين (ليس كمثله شىء) فى المعنى ، إلا أن الثانى كناية مشتملة على مبالغة هى أن المماثلة منتفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه . وهذا لا يستلزم وجود المثل إذ الغرض كاف فى المبالغة ، ومثل هذا شائع فى كلام العرب كما يقولون : مثلك لا يبخل ، يريدون به نفى البخل عن ذاته ويقصدون المبالغة فى ذلك بسلوك طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يماثله فرضا فقد نفوه عنه بطريق أولى . وقيل : يراد بالمثل الصفة ، أى : ليس كصفته صفة (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى : المدرك إدراكا تاما لجميع المسموعات ولجميع المبصرات أو الموجودات .

١٢ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

أى : له - سبحانه وتعالى - مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن حفظًا وتدبيرا ، وهو - عز وجل - يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء حسبما تقتضية الحكمة العالية ، والعدل التام .

(إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) مبالغ فى الإحاطة به كما فى قوله-تعالى- : « وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ »[1] فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل عليه. والجملة تعليل لما قبلها ، وتمهيد لما بعدها من قوله -تعالى- : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ) .

* (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ) : سن لكم من الدين وبين وأظهر وقضى ، والمشرعة والشريعة : مورد الماء .

(وَصَّىٰ) : أمر أمراً لازما جازما . (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) : اجعلوا الدين قائما بالمحافظة عليه ، وتقويم أركانه ، والحرص عليه من أن يقع فيه زيغ أو تفريط .

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ) : عظم واشتد .

(يَجْتَبِىٓ) : يجتلب ويصطفى .

(يُنِيبُ) : يرجع عن الكفر ويختار طريق التوحيد والهداية .

(بَغْيًا) : ظلما وحقدا وعداوة .

(مُرِيبٍ) : مقلق موغل فى الشك .

(١) سورة يونس من الآية ٦١

التفسير

١٣ - (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) :

ختم الله الآية السابقة بقوله :(إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)تعليلا لما قبلها ، وتمهيدا لهذه الآية ومابعدها ، وإيذانا بأن ماشرع الله من الأحكام صادر عن كمال العلم والحكمة ،وقد حكت الآيات السابقة صورا كثيرة من ألوان القدرة ، ومظاهر التفرد بالوحدانية والملك ، وقررت أن الله وحده هو الولى لخلقه ، القادر على كل شىء ، فاطر السموات والأرض ،وأنه-تعالى-جعل من الإنسان أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا ينتظم بها أمرالدنيا ،بيده مقاليد السموات والأرض يتصرف فيها خلقًا وملكًا وإحياء وإماتة وبسطا وتضييقًا ، وهو العليم بكل ما فيها ومن فيها ، لا يعزب عن علمه شىء من أحوالها ، ولا يعجزه أمر من أمورها .

ثم جاءت هذه الآية لتبين أنه-تعالى-شرع لعباده ماينظم سلوكهم . ويقوم مسيرتهم بما جاء على لسان أنبيائه ورسله على تتابع الزمان ، فقال-تعالى- :(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ...) الآية ، والشارع هو الله - تعالى - المفهوم بالنص من الآيات السابقة ، والمخاطب أمة محمد ﷺ .

والمعنى :سنَّ الله-تعالى- لكم يا أمة محمد وأظهر وبين من أمور الدين وأحكامه ماسبق أن وصى به نوحًا ، والذى أوحاه إلى نبيكم ، وما وصى به من جاء بعد نوح من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-وأمرهم به أمراً مؤكداً لازما هو قوله-تعالى- : (أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ) والمقصود به دين الإسلام ، والاستسلام لله وذلك بتوحيده وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ويوم الجزاء ، وسائر ما يكون العبد به مؤمنًا ، وإقامة الدين : معناها تعديل أركانه ، والمواظبة عليه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو تحريف ،والإسلام بهذا المعنى لا يختلف فيه أحد من الأنبياء فى أى عصر من العصور ، والبدء بذكر نوح - عليه السلام- لأنه أبو البشر بعد آدم - عليهما السلام -ولأنه - على ما قيل-أول الأنبياء بعد آدم .

وفى تقدم ذكر الرسول ﷺ على من قبله من الأنبياء إشعار بأن شريعته ﷺ هى الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ، وأنه النبى الخاتم ، وأن رسالته أعم الرسالات .

والمراد بالإيحاء إليه ﷺ إما الإشارة إلى ما ذكر فى خصوص هذه السورة من مثل قوله - تعالى - فى صدرها : (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ) ومن قوله - تعالى - فى ختامها : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا) وإما ما يعمها وغيرها من مثل ما وقع فى سائر المواقع من القرآن الكريم التى من جملتها : «ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وقوله - تعالى - : « قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم .

وتخصيص الرسول بذكر الإيحاء ، وإيثاره على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة وغيرها من مثل قوله - تعالى - : «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً » وقوله - تعالى - : «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً » مما جاء فى هذه السورة بخصوصها ، ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته ﷺ والالتفات إلى « نون » العظمة فى قوله - تعالى - : «وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ » لإظهار كمال العناية بإيحائه .

وقوله - تعالى - : «وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ » معناه - على ما اختاره غير واحد من الأجلة عام شامل للنبى ﷺ وأتباعه وللأنبياء والأمم قبلهم ، أى : لا تختلفوا فى أصل من أصول الدين وقوله - جل شأنه - : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً . أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً »(١) .

ولا يشمل هذا النهى الاختلاف فى الفروع فإنها ليست من الأصول المرادة هنا ، ولم يجمع النبيون على الاتفاق فيها ، أو يتحتم ديناً الاتفاق عليها كما يؤذن بذلك قوله - تعالى - : «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً »(٢) .

قال مجاهد : لم يبعث نبى إلا أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإقرار بالله - تعالى - وطاعته - سبحانه - وذلك إقامة الدين .

ومعنى الآية : شرعنا لكم ما وصينا به نوحا ، وما أوحيناه إلى نبيكم ، وما وصينا به الأنبياء قبلكم - شرعنا - لهم دينا واحدا فى الأصول ، وهى : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٠ ، ١٥١

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٨

والصيام ، والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانات ، وصلة الرحم ، وتحريم الكبر والزنى والإيذاء للخلق ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدناءات ، وما ينافى المروءات ، ونحو ذلك من الكمالات فهذا كله مشروع دينا واحدا ، وملة متحدة ، لم يختلف على ألسنة الأنبياء فى الأصل ولا فى الصورة ، فأقيموا هذا الدين ولاتتفرقوا فيه ، واجعلوه قائما مستمرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب . (الآلوسى بتصرف) .

والذى ينبغى اعتباره ـ ولا مجال للشك فيه ـ أن رسالات الأنبياء جميعاً متفقة فى أصول العقائد ومطلق العبادات ، والأمر بإتيان الفضائل ، واجتناب الرذائل . وقد تختلف فى الفروع أو فى بعضها تبعاً لتقادم الأزمان ، ولمقتضيات الأطوار ، وتطور أحوال الإنسان . كما تختلف فى أسلوب الأداء فى رسالة عن رسالة أخرى .

وقوله ـ تعالى ـ : (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) معناه : شق على المشركين وعظم فى نفوسهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله ـ تعالى ـ ورفض عبادة الأصنام ، وضاقوا بدعوتك ولجوا فى عنادك تقليدا لآبائهم .

وقوله ـ تعالى ـ : (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) فيه تسلية للنبى ﷺ يمحو القلق من نفسه ، ويضفى على قلبه الراحة والاطمئنان إذا علم أن قلوب العباد ونواصيهم بيده ـ سبحانه وتعالى ـ يجتبى إليه من يشاء و يهدى إليه من ينيب .

والمعنى : الله ـ تبارك وتعالى ـ يصطفى إليه من يشاء من عباده الباحثين عن الحق ويهديه إلى الاستجابة ويرشده إلى التوحيد والطاعة ويختاره لحظيرة أنسه ، ودار قدسه ، ويهدى بالإرشاد والتوفيق من يترك المعاصى ويقبل عليه ، ويرجع إليه ، فلا تبال يا رسول الله بخلاف من خالفك ، ولا يشق ذلك على نفسك .

١٤ ـ (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

هذه الآية شروع فى بيان أحوال أهل الكتاب بعد الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك ، قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : هم اليهود والنصارى لقوله – تعالى – : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »[1]

والمعنى : وما تفرق الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فى الدين الذى دعوا إليه فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيته بما شاهدوا فى رسول الله ﷺ والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه فى كتبهم – وهذا ما ذهب إليه العلامة أبو السعود – وقال الآلوسى : وما تفرق أمم الأنبياء بعد وفاة أنبيائهم منذ بعث نوح – عليه السلام – فى الدين الذى دعوا إليه – ما تفرقوا فى وقت من الأوقات – إلا من بعد ما جاء العلم من أنبيائهم بأن الفُرْقة ضلال وفساد وأمر متوعَّد عليه ، وهذا يؤيد ما دل عليه سابقاً من أن الأمم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة ، وإقامة الدين .

ويضعف هذا الرأى أن مشاهير الأمم السابقة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال ، وأن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة ، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء المكذبين دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام تأكيدا لوجوب إقامته ، وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه ، ومهما يكن القول فى التفرق فإنه لم يكن صادرا منهم عن حقيقة ، ولا قائما على رأى ، وإنما كان بغيا وظلما وعداوة وحسدا نابعا من طلب الدنيا والحرص على الرياسة « وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ » أى : ولولا قضاء قضى به الله ، وَعِدَة سبقت منه – جل شأنه – بتأخير العقوبة (إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم (لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى : لوقع العقاب باستئصال المبطلين منهم ، لعظم ما اقترفوه واستيجاب جناياتهم لذلك .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) أى : وإن المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتبهم لفى شك من القرآن مدخل

---

(١) سورة البينة الآية ٤ .

فى القلق والحيرة، ولذلك لا يؤمنون به لمحض البغى والمكابرة بعد ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابيين .

(فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(وَاسْتَقِمْ) : واستمر على المنهج المستقيم ودم عليه .

(أَهْوَآءَهُمْ) : ميولهم الفاسدة .

(مِن كِتَابٍ) أى : أىّ كتاب منزل من الله .

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) : لا محاجة ولا خصومة .

(يُحَآجُّونَ) : يجادلون ويخاصمون .

(فِى اللهِ) : فى دين الله .

(دَاحِضَةٌ) : زائلة باطلة .

التفسير

١٥ ـ (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :

تناولت الآيات السابقة تفرق الأُمم فيما جاءهم به أَنبياؤُهم ، والشك المريب الذى عاشوا فيه ، ثم جاءت هذه الآية ترشد إلى رفض هذا السلوك السيء وتحث على مدافعته واستئصاله ، فالإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ) أى : فمن أَجل ما ذكر من التفرق فادع إلى دين الحق الذى أنت عليه .

والمعنى : إذا كان الأَمر كما ذكر فلأَجل ذلك التفرق وما جر إليه من تشعب فى الكفر ، وشك مريب فى مقدسات الدين فادع يا محمد إلى الاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ، والعقيدة السمحة القويمة (واسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ) واثبت على هذه الدعوة ، والزم منهجها المستقيم (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءهُمْ) الباطلة ولا تطاوع ميولهم الفاسدة ، واحمل الناس كافة على إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه ، فإن تفرقهم فى الدين وكونهم فى شك مريب يحتمان الدعوة إليه والأَمر به .

(وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ) يعنى : دُم على الإيمان بكل كتاب من الكتب المنزلة من الله ، لا تفرق بين كتاب وكتاب منها ، ولا تقل :نؤمن ببعض ونكفر ببعض وفى هذا القول تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أَهل الكتابين ، وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها .

(وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ) أى : وأمرنى ربى أن أعدل بينكم فى فصل القضايا والخصومات ، وفى تبليغ الشرائع والأَحكام ، فلا أَخص بشيء منها شخصاً دون آخر ، وقيل : لأسوى بينى وبينكم . فلا آمركم بما لا أعمله ، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

(اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) أى : خالقنا وخالقكم ، ومتولى أُمورنا وأُموركم ، لا ندين إلا به ولا نخضع إلا لأَمره .

(لَنَآ أَعْمَالُنَا) لا يتخطانا جزاؤها ثواباً أو عقاباً (وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) لا تتجاوزكم آثارها ، فنحن لانستفيد بحسناتكم أو نتضرر بسيئاتكم . (لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) أى : لا خصومة ولا محاجّة بيننا وبينكم ؛ لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للخصومة موقع أو مجال ، ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة . (اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى : الله يجمع بيننا جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء وإليه وحده مصيرنا ومصيركم فيظهر هناك حالنا وحالكم ، ويفصل بيننا وبينكم ، ويلاقى كل واحد منا جزاءه من الثواب أوالعقاب فى هذا المصير المحتوم .

هذا ، وليس فى الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية السيف ، وبهذا يقول أبو السعود ، وهذا-كما ترى-محاجزة فى موقف المجاوبة ، لا متاركة فى موطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال .

١٦ - (وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

لما ذكرت الآية السابقة ظهور الحجة وانقطاع المحجة ، جاءت هذه الآية تنعى على أهل الكتاب الجدل بالباطل واللدد فى الخصومة ، قال ابن عباس ومجاهد : نزلت فى طائفة من بنى إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام ، ومحاولة إضلالهم فقالوا : « كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم » وفى رواية بدل - فديننا - « فنحن أولى به -تعالى- منكم » .

والمعنى : والذين يحاجون من أهل الكتاب فى دين الله بعد أن استجاب الناس لله أو لهذا الدين ، وأذعنوا له ، ودخلوا فيه أفواجاً لظهور حجته ، ووضوح محجته ، وعدالة أحكامه ، وسلامة قواعده - الذين يفعلون ذلك - (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) أى : باطلة وزائلة لا تقبل عند الله ، ولا تصح فى منطق ولا عقل ، بل لا يقام لهم حجة أصلا ، لأن الحجة إنما تصح فيما يقبل فيه الرأى ويستقيم الترجيح ، والتعبير عن أباطيلهم بالحجة -وهى الدليل هنا - مجاراة لهم على زعمهم الباطل .

وقوله – تعالى – : (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) : بيان لما يستحقون وما يجرى عليهم فى الدنيا من الغضب الذى يتغشاهم ، والكآبة التى تعلو وجوههم فتفقدهم الطلاقة والبشر ، وبيان لما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب البالغ الحد فى القسوة والشدة ولا يدرك تصوره فيجتمع ، عليهم – إلى بطلان الحجة – غضب الله ، والعذاب الشديد .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(الْكِتَابَ) : جنس الكتاب ، ويراد به الكتب السماوية المنزلة من الله تعالى .

(الْمِيزَانَ) : الشرع الذى يتحقق به العدل ، أو نفس العدل ، أو آلة الوزن .

(وَمَا يُدْرِيكَ) : وأى شىء يجعلك عالما دارياً ؟ .

(مُشْفِقُونَ مِنْهَا) : خائفون منها .

(يُمَارُونَ) : يجادلون ويشككون، من المرية والشك ، أو من : مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة لإدرار اللبن ، لأن كُلاًّ من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة .

(لَطِيفٌ) : بليغ البرّ .

(حَرْثَ) الحرث : كسب المال ، وجمعه : أحراث ، والحرث : البذر الذى يوضع فى الأرض لينبت ، ويطلق على الزرع الحاصل منها ، وعلى ثمرة الأعمال .

التفسير

١٧ - (اللهُ الَّذِىٓ أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) :

هذه الآيات من جملة تسفيه المشركين الذين يجادلون فى دين الله من بعد ما استجيب له ، وتمكنت دعوته ، ورسخت حجته ، وإمعان فى تهديدهم وتخويفهم وتحذيرهم مغبة ما يفعلون بتقرير صدق الكتب السماوية المنزلة من الله - تعالى - على أنبيائه المتمثلة فى قوله - تعالى - : (اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) .

والمعنى : الله - سبحانه وتعالى - هو الذى أنزل الكتاب ملتبسا بالحق بعيدا عن الباطل فى أحكامه وأخباره ، قائما على الصدق فى كل ما جاء به من العقائد والعبادات والفضائل لا مجال فيه لجدل ، ولا سبيل إلى محاجة أو مكابرة فى شأنه .

والمراد بالميزان - والله أعلم - : الشرع الذى تحدد به الحقوق ، ويسوى به بين الناس ، أو العدل ، والمقصود بإنزاله الأمر به - وقيل : المراد خصوص آلة الوزن . والمقصود من الساعة القيامة فى قوله - تعالى - : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) أى: لعل القيامة قريب ، والاستفهام للتنبيه والإعذار ، والمعنى : وأى شىء يجعلك عالما داريا بما يغيب عنك من الأمور التى من جملتها قيام الساعة ؟ إن قيام الساعة قريب وشيك الإتيان فاتبع الكتاب ، وواظب على العدل ، واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ، ويوفى جزاؤها .

١٨ - (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) :

قررت الآية السابقة أن القيامة على وشك الإتيان ثم جاءت هذه الآية بعدها توضح موقع الناس من أمرها ، وحقيقة إيمانهم بها ، وأبانت أنهم منها بين جاحد منكر يستعجل وقوعها سخرية واستبعادا ، وبين مؤمن مصدق بها مشفق من وقوعها مع عمله لها أو تقصيره فى شأنها

والمعنى : يستعجل وقوع الساعة وينادى بحصولها المشركون المنكرون لها سخرية واستبعادا ، كانوا يقولون : متى هى ؟ ليتها قامت حتى يظهر حال ما نحن عليه ، وما عليه محمد وأصحابه . أما الذين آمنوا وصدقوا فدائمون على الخوف منها والإشفاق من وقوعها مع عملهم الصالح ، وطاعتهم المرضية استقلالا لأعمالهم واستصغارا لحسناتهم ، مع يقينهم أن حصولها هو الأمر المحقق الكائن لامحالة ، وأشدهم خوفا منها هم المؤمنون المقصرون فى العمل لها.

ولعل من حلية الأسلوب ، وجمال تنسيقه ما قاله الجلبى من أن الآية من الاحتباك ، والأصل : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها ، والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلونها ، وفى التعبير بالفعل المضارع فى الجملة الأولى ، وبالجملة الاسمية فى الجملة الثانية ما يلمح إلى تجدد القلق والاضطراب فى نفوس الذين لا يؤمنون بها وتمكن الاستقرار والاطمئنان فى قلوب المشفقين منها .

وفى قوله ـ تعالى ـ : (أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) تنبيه على غفلة هؤلاء المشركين ، واستعظام لإنكار الساعة ، واستقباح لماراتهم فيها ، وتشككهم وتشكيكهم فى حصولها ، وهى أقرب الغائبات إلى المحسوسات ، وذلك مما يقتضيه العقل الراجح ، والفطنة السليمة .

١٩ ـ (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ) :

هذه الآية من كتاب الله يدق فيها الفهم بقدر ما يرق فيها اللطف ، فإن عباد الله منهم البرّ والفاجر ، وفيهم المؤمن والكافر ، وإن أرزاق الله التى تجرى على خلقه تتعدد حسا ومعنى ، ويختلف جريها على الناس سعة وضيقاً ، وإعطاء لشىء وحرمانا من آخر ، وهى فى جملتها لا تنقطع عن مخلوق ـ إنساناً ، أو حيوانا ـ قال ـ تعالى ـ : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ » (١)
ولهذا تقدم فى الآية اللطف على إجراء الرزق ، وتعقب إجراء الرزق بالقوة والعزة .

(١) سورة هود : الآية ٦

والمعنى : الله لطيف بعباده ، أى : برٌّ بليغ البر بعباده رفيق بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه ، وصنوف آلائه ما لا تبلغه الأفهام . قال حجة الإسلام - عليه الرحمة - : إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دق منها ولطف ثم يسلك فى إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل ، واللطف فى الإدراك تم معنى اللطيف، ولا يتصور كمال ذلك إلا فى الله - تعالى - والمقصود بالعباد جميع خلقه لإضافة العباد - وهو جمع - إلى ضميره - تعالى - فيفيد الشمول والعموم ، ومعنى قوله - تعالى - : (يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ) : يجرى رزقه على من يشاء بما شاء من أنواع الرزق فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته وحكمته ، وهو القوى القادر الذى لا يعجز ، العزيز المنيع الغالب الذى لا يقهر . والتذييل بالاسمين الجليلين مؤذن بالتعليل ، كأنه قيل : لطيف بعباده عظيم الإحسان بهم ، لأنه - تعالى - القوى الباهر القدرة الذى غلبت قدرته جميع القدر ، يرزق من يشاء ، لأنه العزيز الذى لا يغلب .

٢٠ - (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ) :

أى : من كان يطلب من المكلفين بأعماله ثواب الآخرة ، ويرجو رحمة الله وحسن جزائه يوم القيامة يضاعف الله له ثوابه بالواحد عشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاء ، ومن كان يطلب بأعماله الدنيا ويجرى وراء متاعها وزخرفها لا يريد غير ذلك يؤته من ذلك حسبما قسم الله له وقدر فى الدنيا ولا حظَّ له فى الآخرة ، وما له فيها من أجر ولا ثواب ، لأنه أفرغ همه ، وقصر جهده على طلب الدنيا ، وفى هذا التوجيه حث على إخلاص النوايا ، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

ولم تشر الآية إلى أن لطالب الآخرة نصيبا فى الدنيا على نحو ماذكر لطالب الدنيا للتنويه بعظم أجره فى الآخرة والاستهانة بما يناله فى الدنيا مهما عظم بجانب ثواب الآخرة .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(شُرَكَآءُ) : شياطين أو أصنام . (شَرَعُواْ) : سوّلوا وزينوا .

(مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ) أى : مالم يأمر به كالشرك ونحوه .

(كَلِمَةُ الْفَصْلِ) : القضاء السابق بتأجيل عذابهم .

(لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ) : فصل بين المشركين والمؤمنين ، أو بين المشركين وشركائهم .

(مُشْفِقِينَ) : خائفين .

(رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) : أطيب بقاعها ، وأعلى منازلها وأنزهها . (يَقْتَرِفْ) : يكتسب .

التفسـير

٢١ – (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

هذه الآية تنعى على المشركين كفرهم الذى دعاهم إلى إيثار متاع الدنيا على العمل للآخرة ، وتنكر عليهم فى أسلوب توبيخى تقريعى ما هم عليه من العقائد الفاسدة ، والإخلاد

إلى الدنيا ، وهى فى مقابلة قوله ـ تعالى ـ : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً) لتدلَّ على أنهم فى شرع يخالف ما شرعه الله ـ تعالى ـ من كل وجه : حيث قابلوا إقامة الدين فى قوله ـ تعالى ـ : (أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ) بالشرك ، والإشفاق من يوم القيامة باستعجال الساعة ، وطلب الآخرة بالعمل للدنيا .

والمعنى : بل ألهؤلاء الكفار والمشركين من أهل مكة شركاء من الشياطين سوّلوا لهم من الدين وسنوا ما لم يأذن ويأمر به الله ـ تعالى ـ كالشرك وإنكار البعث فاتخذوه دينا لهم ومنهجا (وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى : ولولا أن الله قضى وحكم بتأخير العذاب فى هذه الأمة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة لوقع العذاب فى الدنيا على الذين يكذبونك . ولفصل الله بين المشركين والمؤمنين فهلك من هلك عن بيّنة وحىَّ من حىَّ عن بيّنة ، أو لفصل بين المشركين وشركائهم من الشياطين والأصنام بما يقضى به الله فيهم .

وبما أن شركاءهم من الشياطين حرضوهم على الشرك وشرعوه لهم ولم يأذن به الله ، فيكون الاستفهام الإنكارى الذى تضمنه لفظ (أم) مرادًا منه إنكار هذا الواقع وتوبيخهم عليه .

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : وإن لهؤلاء المشركين الذين يستوحون دينهم من شياطينهم ، لهم عذاب موجع بالغ غاية الإيلام والإيجاع فى الآخرة .

هذا ، وإسناد الشرع إلى الشركاء لأنهم سبب ضلالهم وفتنتهم كقوله ـ تعالى ـ : « إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ [1] » . وتسمية ما شرعوه دينا للتهكم والسخرية ، والتعبير بالظالمين عن ضميرهم للإشارة إلى أنهم ـ بشركهم ـ تجاوزوا حدّ الاعتدال فظلموا أنفسهم بالشرك ، وظلموا المؤمنين بمعارضتهم ، وظلموا دين الله بالافتراء عليه ـ وإنكار أحكامه العادلة ، ومنهجه القويم ، وإن الشرك لظلم عظيم .

٢٢ ـ (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) :

---

(١) سورة إبراهيم : من الآية ٣٦

هذه الآية كلام مستأنف يعرض مشهدا من أحوال الناس يوم القيامة ، والخطاب فيه لكل أحد يصلح لتلقى الخطاب ، قصدا إلى المبالغة فى عرض سوء حال الظالمين ، وجمال نعيم المؤمنين .

والمعنى : ترى يا من يصح منه أن يرى . ترى الظالمين الذين كانوا متجبرين فى الدنيا يرفلون فى الترف والنعيم – تراهم – يوم القيامة أذلاء صاغرين مشفقين أشد الإشفاق خائفين غاية الخوف من جزاء وعذاب ما كسبوا من المعاصى واقترفوا من المظالم والمآثم وهو واقع بهم لا محالة لا ينجيهم منه خوف ولا يعفيهم إشفاق فإن يوم الجزاء لا يُنجى منه خوف ، ولا إشفاق من الكافرين الظالمين .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) :

آمنون مستقرون فى أطيب بقاع الجنات ، وأعلى منازلها وأنزه ملاذها دانية عليهم ظلالها ، مُذَلَّلَة قطوفها ، لهم ما يشتهون من فنون الملذات عند ربهم ، فلا ينتهى فيها نعيم ، ولا ينقصه وافر العطاء .

(ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) : أى ذلك الشأن الذى يعيشون ، والنعيم الذى يتنعمه أهل الجنة البالغ أعلى الدرجات فى السمو والراحة ، هو الفضل الذى لا يقادر قدره ، ولا يبلغ أحد وصفه .

٢٣ – (ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) :

الكلام فى هذه الآية موصول بالكلام عن الفضل الكبير المذكور فى الآية قبلها .

والمعنى : ذلك الفضل المتناهى فى الكبر المتعاظم فى العلو هو الذى يبشر الله به عباده الذين أخلصوا الإيمان ، وأكثروا عمل الصالحات وداوموا عليها ، يبشرهم بذلك الفضل استعجالا لسرورهم فى الدنيا .

روى أن المشركين اجتمعوا فى مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا ؟ ، فنزل قوله – تعالى – : (قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) :

والمعنى : قل لهم يا أيها الرسول الكريم ردًّا على ما تساءلوا به : لا أطلب منكم على ما أنا فيه من تبليغ الرسالة - وتعليم الشريعة - لا أطلب منكم نفعا ولا أبتغى عليه أجرا إلاَّ أن تودوا أهل قرابتى وتحفظوا حقهم وواجبهم وليس ذلك أجرا لأن قرابتكم قرابتى فهى صلة يفرضها الدم ، وتقتضيها حق قرابتى ورحمى ، وقد ذكر الطبرى فى هذه الآية آراءً لعل من تمام الإيضاح أن نذكرها كما أشار إليها غيره من المفسرين - قال - رحمه الله - عند ذكر هذه الآية : اختلاف فى معناه على أقوال :

(أحدها) : لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجرا إلَّا التَّواد والتَّحاب فيما يقرب إلى الله - تعالى - من العمل الصالح - عن الحسن والجبائى وأبى مسلم : قالوا : هو التقرب إلى الله - تعالى - والتودد إليه بالطاعة .

(ثانيها) : معناه إلَّا أن تودونى فى قرابتى منكم ، وتحفظونى لها - عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة قالوا : وكل قرشيّ كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة ، وهذا لقريش خاصّة ، والمعنى إن لم تودونى لأجل النبوّة فودونى لأجل القرابة التى بينى وبينكم .

(ثالثها) : أن معناها إلَّا أن تودوا قرابتى وعترتى وتحفظونى فيهم . عن ابن عباس - مرفوعاً إليه بكثير من الرواة قال : لما نزلت : (قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . . .) الآية قالوا : يا رسول الله ؛ من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم ؟ قال : علىّ ، وفاطمة ، وولدهما .

وأخرج الترمذى - وحسنه . والطبرانى . والحاكم - والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال - عليه الصلاة والسلام - : « أحبّوا الله - تعالى - لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبّونى لحبّ الله - تعالى - وأحبّوا أهل بيتى لحبّى » .

وأخرج أحمد والترمذى ، وصححه ، والنسائى عن المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال : إنَّا لنخرج فنرى قريشاً تتحدث ، فإذا رأونا سكتوا

فغضب رسول الله ﷺ ودرّ عِرْق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله – تعالى – ولقرابتى » وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم .

(وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً) أى : ومن يكتسب عملا صالحا : ويصطنع طاعة خالصة من الطاعات التى من جملتها المودة فى القربى (نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) أى : نضاعف له فى جزاء هذه الحسنة بمقدار ما أحسن فيها وأضعافه بمضاعفة الثواب عليها – روى أن الآية نزلت فى أبى بكر – رضى الله عنه – لشدة محبته لأهل البيت .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ) :واسع المغفرة يستر عيوب عباده ويغفر ذنوبهم إذا تابوا (شَكُورٌ) : عظم الشكر لمن أطاعه يوفيه حقه من الثواب ، ويتفضل عليه بالمزيد من غير حساب .

(أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(افْتَرَىٰ) : اختلق .

(يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) : يطمس عليه وينسيه فلا يعى .

(يَمْحُ) : يزيل .

(ذَاتِ الصُّدُورِ) : حقائقها ودخائلها .

(التَّوْبَةَ) : الرجوع عن المعاصى بالندم عليها ، والعزم على تركها أبدا .

التفسير

٢٤ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

الاستفهام المفهوم من لفظ (أم) لتوبيخهم على مقالتهم .

والمعنى : أيجترىء هؤلاء السفهاء ، وتطاوعهم ألسنتهم بنسبة مثله - عليه الصلاة والسلام - إلى الافتراء والكذب والاختلاق وهو من هو الذى لم يعرف عنه فى جاهلية ولا فى إسلام أنه ألمّ بكذبة قط ، ثم كيف يستقيم افتراؤه على الله والإفتراء على الله -عزّ وجلّ- أقبح الفرى وأفحشها ، وما عرف عنه ﷺ كذب على أحد مطلقاً مشرك أو مؤمن، فالافتراء منه ﷺ مستبعد ، وعلى الله مستحيل وقوله - تعالى - : (فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) استبعاد للافتراء عن مثله ، أى فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترىَ عليه الكذب ، فإنه لا يفترى الكذب على الله إلّا من كان فى مثل حالهم مختوماً على قلبه . والأمر لم يكن على ذلك فقد تواتر الوحى ، وتكامل إنزال القرآن حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته .

(وَيَمْحُ[1] اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) :كلام مستأنف غير معطوف على يختم مقرر لنفى الافتراء عنه ﷺ ، مسوق لبيان شأن من شئون الله - تعالى - وتقرير سننه بمحو الباطل

---

(١) وسقوط الواو من كلمة (يمح) ليس للعطف على (يختم) بل لمجرد التخفيف ، كما حذفت فى قوله - تعالى - : « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير » .

وإزهاقه ، وتأكيد الحق وإحقاقه كما ينطق بذلك قوله ـ تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[1] .

والمعنى : ومن سنن الله ـ تعالى ـ أنه يمحو الباطل بقدرته وحكمته ، ويثبت الحق ويحققه ببرهانه وآياته .

ويجوز أن يكون الكلام مسوقا مسوق الوعد والبشارة للرسول ﷺ بأنه ـ تعالى ـ يمحو الباطل من البهتان والتكذيب ، ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مردّ له بنصرته عليهم .

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : إنه مطلع على دخائل القلوب بصير بحقائقها ، لا تخفى عليه خافية من أمورها ثم يجرى عليها أحكامه المناسبة لأحوالها .

٢٥ ، ٢٦ ـ (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

لوّحت الآيات السابقة بالوعيد لمن غوى وضل سبيل الهدى واتبع الهوى فابتدع شرعاً لم يأذن به الله أو ادعى افتراءً على الله ، وجاءت هذه الآيات تهبّ بنسائم الرحمة وتفتح مغاليق الخير والبرّ ، حتى لا ييئس عاص من رحمة الله ، ولا ينقطع طمع مذنب من رجاء الله ، فقال ـ تعالى ـ : (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . . .) الآية :

والمعنى : وهو الله ـ تعالى ـ الذى يتفضل بواسع فضله ووافر برّه ورحمته بقبول التوبة عن عباده يتجاوز عما تابوا عنه وأقلعوا عن فعله فى ندم وحسرة ، فإن التوبة الصادقة هى الرجوع عن المعاصى والندم عليها ، والعزم على عدم معاودتها أبدا ، روى جابر ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على ـ رضى الله عنه ـ : « يا هذا ، إن سرعة اللسان

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ١٨

بالاستغفار توبة الكذّابين ، وتوبتك هذه تحتاج إلى توبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضى من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضَحكته .

(وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ) أى : يتجاوز عن جميع السيئات الكبائر والصغائر ، وقيل : يعفو عن الكبائر ، وعن الصغائر باجتناب الكبائر (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) أى : ويعلم كل ما تفعلونه كائنا ما كان ، سرا أو جهرا كبيرا أو صغيرا خيرا أو شرا فيجازى بما شاء ويتجاوز عما يشاء حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة .

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) : يختص الله – تعالى – فى هذه الآية الذين آمنوا وعملوا الصالحات بمزيد من الفضل تقديرا لأعمالهم ، وبعثا لهممهم ، واستجلابا لغيرهم فى استباق الخيرات ، والمبادرة إلى الصلوات ، والكلام فى قوله – تعالى – : (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ) على حذف اللام ، أى : يستجيب لهم كما فى قوله – تعالى – : « وَإِذَا كَالُوهُمْ »[1] أى : كالوا لهم .

والمعنى : ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات دعاءهم ويثبتهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، فإن الطاعة لما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء والطلب ، وشابهت الإثابةُ والجزاءُ عليها الإجابة .

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ : « أفضلُ الدعاءِ الحمدُ » ، وسئل سفيان عن قوله – عليه الصلاة والسلام – فى الحديث : « أكبرُ دعائى ودعاءِ الأنبياءِ قَبْلِى لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له ، له الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ » فقال : هذا قوله – تعالى – فى الحديث القدسى : « مَنْ شَغلهُ ذِكْرى عن مسألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطِى السائلين » وقيل الاستجابة فعلهم أى : يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها ، وعن إبراهيم بن أدهم – لما قيل له : ما بالُنا ندعُو فلا نُجَاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تُجيبوه ، ثم قرأ « وَاللهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »[2] .

---

(١) سورة المطففين من الآية ٣

(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٥

ومعنى (وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ) : يضاعف لهم أجرهم ويزيد ثوابهم على ما استحقوا من الثواب بموجب الوعد والعدل، وذلك من واسع فضله ووافر عطائه وكرمه، وإذا كان للذين آمنوا وعملوا الصالحات ثواب أعمالهم ومضاعفة أجورهم فضلا من الله - تعالى - فإن الكافرين الذين عاشوا حياتهم في الكفر والمعاصي لهم في الآخرة - جزاء كفرهم وعصيانهم - عذاب بالغ الحد في المهانة والشدة والتهديد . مقابل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد .

* (وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾)

المفـردات :

(بَسَطَ) : وَسَّع وكَثَّر .

(لَبَغَوْا) : لَطَغَوْا وتَكَبَّرُوا .

(بِقَدَرٍ) : بتقدير حكيم .

(الْغَيْثَ) : المطر النّافع الذي يُغيث النّاس بعد الجدب .

(قَنَطُوا) : يَئِسوا من نزوله .

(وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) : يبسطها ويُعمّها .

التفسـير

٢٧ - (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) :

فيما سبق من الآيات يمتنّ الله على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه ، فيعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، وبأنه يُجيب دُعاءَ الْمُؤْمنين إلى ما طلبوا ويزيدهم خيرا ، وفي هذه الآية

يمنّ عليهم أيضاً - سبحانه وتعالى - بأنّه مُحيط علما بما خفى وظهر من أمورهم ، فيقدّر بحكمته لكلٍّ ما يصلحُ شأنه فيقول : (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الْأَرْضِ ...) الآية .

سبب النزول :

قيل : نزلت هذه الآية فى قوم من أهل الصُّفة تمنَّوا سَعَةَ الرِّزق والغنى ، قال خبّاب بن الأرت : فينا نزلت ، وذلك أنّنا نظرنا إلى أموال بنى قُرَيْظة وبنى النَّضير وبنى قَيْنقَاع فتمنيناها فنزلت . (ذكره الزّمخشرى والآلوسى) .

والمعنى : ولو وسع الله الرِّزق على جميع عباده ، وكَثَّره عندهم وأعطاهم فوق حاجتهم لطغوا وظلموا ، وتكبَّروا فى الأرض ، وفعلوا مايستتبعه الكبر من العلوّ والفساد « فإنّ الغنى مبطرة مأشرة » وكفى بحال قارون عبرة[1] وفى الحديث : « أخْوَفُ ما أخافُ على أمتى زهرة الدُّنيا وكثرتُها » .

ولكن يُنَزِّل اللهُ الرِّزق بتقدير مُحكم ، فيُوسِّعه على من يشاء ، ويُضيِّقه على من يشاء تبعا لما اقتضته حكمته وفى الحديث : « إنّ مِنْ عبادى من لا يُصْلحه إلا الغِنَى ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دينَهُ ، وإنّ مِن عبادى من لا يُصْلحه إلَّا الفقر ولو أغنيتُهُ لأفسدتُ عليه دِينَهُ » .

وهو - سبحانه - محيط علما بما خفى وظهر من أمور النّاس ، يعلم ماتصير إليه أحوالهم فيقدر بحكمته لكلٍّ ما يُصْلح شأنه ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا ولله درّ الغزالىّ حيث يقول : « ليس فى الإمكان أبدع ممّا كان » .

وقد يبْغِى الفَقِيرُ ولكن ذلك قليل ، والْبغْى مع الغنى أكثر وقوعاً .

٢٨ - (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ) :

ومن نعم الله وآلائه على عباده أنه هو الذى ينزل المطر فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه فيغيثهم به بعد يأس من نزوله ، وينشر رحمة الغيث بتكثير منافعه وآثاره فى كل شىء ، وفى كلِّ مكان فى السَّهل والجبل والنَّباتِ والحيوان - أو يعم الكائنات برحمته الواسعة المشتملة على ما ذكر من المطر وغيره ، وهو وحده - الذى يتولى أمور عباده بالإحسان ونشر الرحمة ، (الْحَمِيدُ) : الْمُسْتَحِق للحمد على ذلك - لا غيره -

(١) أى موقع فى الأثر وهو البطر .

ذكر ابن كثير ، والزمخشرى : أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : اشتدّ القحط وقنط الناس فقال عمر: مُطِرتم[1] ثم قرأ (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا) : وما فرّق ونشر فيهما .

(دَابَّةٍ) : هى كل ما يدبّ[2] على الأرض من إنسان وغيره .

(جَمْعِهِمْ) : حشرهم بعد البعث للمُحاسبة .

(مِن مُصِيبَةٍ) : من بليّة وشدّة .

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) : فبما ارتكبتم من الآثام .

(وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) : وما أنتم بجاعلين الله عاجزا عن عقابكم فى الأرض.

التفسـير

٢٩ - (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) :

بعد أن ذكر الله آلاءه ونعمه على عباده ذكر - سبحانه - مظاهر قدرته ودلائل عظمته وقوّته فقال :

(وَمِنْ آيَـاَتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) إلخ أى : ومن آياته الدالة على عظمته وقدرته وسلطانه القاهر خلق السموات والأرض على ما هما عليه من الصنع البديع ، والنظام

---

(١) يعنى : جاء أوان إمطاركم بعدما قنطتم .   (٢) أى : يمشى ويسير .

المُتقن ، فإنهما بذاتهما وصفاتهما العجيبة تدلان على قدرته وعظمته وبديع صنعه ، وَمَنْ له أدنى عقل وإنصاف يجزم باستحالة صدورهما من الطبيعة التى لاعقل لها ولا إرادة ومن آياته - أيضاً - خَلْقُ ما نشر وفرّق فى السموات والأرض من دابة وهى تشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها ولغاتها وطباعها وأجناسها وأنواعها ، وقد فرّقهم فى أرجاء السّموات ، ونشرهم فى أنحاء الأرض ، وهو - مع هذا - على جَمْعِهم وحشرهم بعد البعث للمحاسبة - إذا يشاء - تَامُّ القدرة كاملها .

وظاهر الآية : وجود الدّابة فى السّموات والأرض وبه قال مجاهد وفسّر الدابة بالنّاس والملائكة .

ويرى الزّمخشرىّ : أنّ مافى أحد الشيئين يصدق أنّه فيهما على الجملة فالآية على أسلوب « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »[1] وإنّما يخرجان من الملح .

ويجوزأن يكون للملائكة مشى مع الطّيران فَيُوصَفُوا بالدَّبِيبِ كما يُوصف به الأناسى ، ولايبعد أن يخلق الله فى السّموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسىّ على الأرض ، وسبحان الّذى خلق ما نعلم ومالا نعلم من أصناف الخلق . (انتهى كلام الزمخشرى ملخصًا) . وصدق الله العظيم حيث يقول : «وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ »[2] .

٣٠ - (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ) :

أى : وما أصابكم ونالكم - أيها النّاس - مِن مصيبة مِن مصائب الدنيا أو مكروه من مَكَارِهها كالمرض والفقر والضّيق وسائر النّكبات فبسبب معاصيكم وما ارتكبتم من مُوبقات ، واجترحتم من سيّئات فى الدنيا ، ويعفو الله - سبحانه - عن كثير من الذنوب فلا يُعاقِب عليها بمصيبة عاجلا أو آجلا ، ويجوز أن يكون المراد : ويعفو عن كثير من النّاس فلا يعاقبهم ، والظّاهر : المعنى الأوّل وهو الذى تشهد له الأخبار .

---

(١) سورة الرحمن : الآية (٢٢) .
(٢) سورة النحل من الآية (٨) .

فقد روى الترمذىّ عن أبى موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال : « لا يُصيب عبدًا نَكْبةٌ فما فَوْقَها أو دُونَها إلا بذنب ، وما يَعْفُو اللهُ - تعالى - عنه أكثر ، وقرأ : (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)[1] ومن لاذنب له كالأنبياء - عليهم السّلام - قد تصيبهم مصائب ، ففى الحديث «أشدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ » ويكون ذلك لرفع درجاتهم ، أو لحكم أُخرى يعلمها الله ثُمّ إنَّ المصائب قد تكون عقوبة على الذّنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه فى الآخرة إذا تقبل العقوبة بنفس راضية ، وعلى ذلك يحمل ما رُوى عن علىّ - كرم الله وجهه - وقد رفعه إلى رسول الله ﷺ : « مَن عُفِىَ عنهُ فى الدُّنيا عُفِىَ عنه فى الآخِرة ، ومن عُوقِب فى الدّنيا لم تُثَنّ عليه العقوبةُ فى الآخرة » وعنه - أيضاً - كرّم اللهّ وجهه : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن

٣١ - (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :
أى : ولستم بقادرين على أنْ تجعلوا الله عاجزا عن إنزال المصائب بكم فى الدُّنيا عقابا لكم على ما كسبت أيديكم وإن هربتم فى أقطار الأرض كلّ مَهْرَب ، ومالكم من دونه من مُتولٍّ بالرّحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب ، ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه إذا وقع بكم .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾) .

(١) سنن الترمذى : كتاب التفسير - سورة الشورى - ج ٥ / ٣٧٧ رقم ٣٢٥٢ ط / الحلبى وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

المفردات :

(الْجَوَارِ) : جمع جارية وهى السُّفن .

(كَالْأَعْلَامِ) : كالجبال أو كالقصور العالية .

(فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ) : فَيَصِرْنَ ثوابت سواكن لا تتحرك .

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ) : أو يُهلكهنّ بالغرق .

(مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ) : ما لهم مِن مَهْرب ولا مَخْلص من العذاب .

التفسير

٣٢ - (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) :

أى : ومن آيات الله ودلالته الدّالة على قدرته الباهرة وسلطانه القاهر- السُّفن الجارية فى البحر، كالجبال الشّاهقة فى عظمها ، سخرها الله - تعالى - فى البحر بأمره لخدمة الإنسان وقضاء مصالحه ، وأجْرَاها بقُدرته ليسهل انتقال الناس من مكان إلى آخر ، فتروج التّجارة ، وتَرْتقِى الصِّناعة ، ويتبادل النّاس المنافع ، وتزدهر العلوم والمعارف .

٣٣ - (إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى : إن يشأ الله يُسكن الرِّيح ويمنع حركتها فتظل السُّفن ثوابت على ظهر الماء لاتتحرّك ولا تجرى بالنّاس إلى مقاصدهم وقضاء مآربهم .

إنّ فى ذلك الذى ذُكر من السّفن المسخّرة فى البحر تحت أمره وحسب مشيئته وسيرها ووقوفها بأمره - إن فى ذلك - لدلالات عظيمة واضحة على قدرة الله ليعتبر بها المؤْمنون الصّابرون فى الضّراء ، الشّاكرون فى السّراء ، لأنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر .

٣٤ - (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ) :

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا) معطوف على (يُسْكِن) فى الآية السابقة .

لأنّ المعنى : إن يشأ الله يبتلِ المسافرين فى البحر بإحدى بليّتين : إمَّا أن يُسْكن الرِّيح فتبقى السفن على متن البحر ويمتنعنَ من الجرى ، وإمّا أن يُرْسل الرِّيح عاصفة فتهلك أهلها إغراقا بسبب ما كسب أهلها من الذّنوب ، ويعف عن كثير فلا يُعاقبهم بما سبق « كشاف بتصرف » وقال بعض علماء التفسير فى قوله ـ تعالى ـ : (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ) :

إنّ المعنى : وإنْ يشأ اللهُ يُرسل الريح قَويّة عاتية فتأْخذ السّفن وتُميلها عن سيرها المستقيم وتُصرفها ذات اليمين وذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جُهة ، فيهلك من فيها إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذّنوب ، وهكذا لو شاء الله لسكّن الريح فوقفت السفن ، أو أثارها وأهاجها فشردت السفن وأبقت وأهلكت مَنْ فيها ولكن من لطفه ورحمته أن يرسل الرّياح بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية . (ابن كثير بتصرف) .

وهو قريب مما قاله صاحب الكشاف .

٣٥ـ (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَٰتِنَا مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ) :

المعنى: إن يشأ الله إمساك الريح أو إرسالها عاصفة ، فيهلك من فى السفن لينتقم من العصاة وليعتبر المؤمنون ويعلم الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ويُشَكِّكون النّاس فيها أنّهم فى قبضته مقهورون برُبُوبيّته ، ما لهم من مَهْرب من عذابه ، ولا مَحِيد لهم عن عقابه ، ولا مَخْلَص لهم من بأْسه ، ولا مَلْجَأ لهم من بطشه .

(فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾).

المفردات :

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ) : فما أُعطيتم مِنْ أثاث الدُّنيا وزينتها .

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : يُتَمتَّع به فيها ثم يزول .

(وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : وعلى الله وحده يعتمدون .

(كَبَائِرَ الْإِثْمِ) : أى الفواحش وكبائر الذنوب وقُرِئَ كبير الإِثم وعن ابن عبّاس هو الشِّرك .

(الْفَوَاحِشَ) : ما عَظُم قُبْحهُ من الذّنوب كالزِّنى .

(اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) : أَجَابُوهُ إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِن التوحيد والعبادة .

(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) : شأْنُهم التّشاور ومراجعة الآراء فى أُمورهم .

(الْبَغْيُ) : الظُّلم والعدوان .

(يَنتَصِرُونَ) : يَنْتَقِمُون بمثل ما عُوقِبُوا بِه .

التفسير

٣٦ـ (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

عن على ـ كرّم الله وجهه ـ أنّه قال : اجتمع لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ مالٌ فتصدق به كلّه فى سبيل الله فَلاَمَهُ المُسلمون وخَطَّأه الكافرون فنزلت .

والمعنى : يقول الله ـ تعالى ـ مُحَقِّرا شأْن الدُّنيا وزينتها وما فيها من المتاع والنّعيم (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) إلخ ، أى : وما أُعطيتم ونلتم من زخارف الدُّنيا ، وجمعتم من أموال ، ورزقتم من بنين فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدّنيا ، وهى دار فانية ومتاع زائل .

وما عند الله من ثواب الآخرة ونعيمها خير فى ذاته لخلوص نفعه ، وأبقى زمانا ، حيث لا يزول ويَفْنَى ، وقد أعدّه الله ـ سبحانه ـ للّذين آمنوا وصبروا على ترك اللّذات فى الدُّنيا ، وعلى خالقهم ومربيهم ـ لا على غيره ـ يعتمدون فى كُلِّ الأُمور ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحظورات .

٣٧ـ (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) :

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ...) إلخ عطف على (الَّذِينَ آمَنُوا) فى الآية السابقة ، وكذلك ما بعده من الآيات والمعنى : ومن صفات المؤمنين أنّهم الذين يبتعدون عن كبائر ما نهى الله عنه كالشِّرك وعن كل ما عَظُمَ قُبْحه وفَحُشَ أمره كالزِّنى ، وإذا ما تعرض لهم أحد بالإساءة إليهم فى الدُّنيا كانت سجيّتهم الصَّفح وسَليقتُهم الغفران والعفو .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : (هُمْ يَغْفِرُونَ) إشارة إلى أنّهم المختصون بالغفران فى حال الغضب ، لا يُذْهِب الغَضَبُ أخلاقهم ، وقد ثبت فى الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ « ما انتقم لنفسه قط إلّا أن تُنْتَهكَ حُرماتُ الله » .

٣٨ـ (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) :

سبب النزول :

قيل : نزلت فى الأنصار دعاهم الله - تعالى - على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته - سبحانه - فاستجابوا له فأثنى عليهم - جلّ وعلا - بما أثنى هنا .

والمعنى : والّذين أجابوا دعوة خالقهم ومُرَبِّيهم إلى ما دعاهم إليه من التّوحيد والعبادة وأجابوا رسله ، واتّبعوا أمره ، وخافوا زجره ، وأقاموا الصّلاة بالمواظبة عليها والإتيان بها كاملة ، والاحتفاء بها ، وكان شأنهم التّشاوُر فى شئونهم ، ولا يُبرمون أمرا حتى يتدارسوا طلبا للعدل ، وابتغاء الوصول إلى الحقّ ، فلا ينفرد أحدهم برأى ، ولا يستبدّ بهم فرد أو قِلّة من النّاس ، ومّما رزقهم الله وأنعم به عليهم يُنفقون ويبذلون فى وجوه الخير المتعدّدة وفى الآية حث على الشورى ، أخرج عبد بن حميد والبخارى فى الأدب وابن المنذر عن الحسن قال : « ما تَشَاور قوم قطّ إلّا هُدُوا لأَرْشد أمرهم : ثم تلا (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ولقد كانت الشورى بين النبى وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذلك بين الصّحابة ، وكانت - أيضاً - بينهم فى الأحكام كقتال أهل الرِّدة ، وميراث الجدّ ، وعدد حدّ الخمر وغير ذلك ، والمراد بالأحكام : ما لم يرد فيه نصّ شرعى ، وإلّا فالشورى لا معنى لها مع النص ، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله - عزّ وجلّ - إلى آراء الرِّجال ، والله - سبحانه - هو العليم الخبير ، ويُؤيد ما قُلنَاهُ ما أخرجه الخطيب عن علىّ - كرّم الله وجهه - قال : « قلْتُ يا رسولَ الله : الأمرُ ينزلُ بِنا بعدَك لم يَنزِلْ فيه قرآنٌ ولم يُسْمَعْ مِنكَ فيه شيءٌ قال : اجمَعُوا العابِدَ مِنْ أُمَّتى واجعلوه بينَكُم شُورَى ولا تقضوهُ بِرأى واحِد » .

وينبغى أن يكون المُستشار عاقلا عابدا - أخرج الخطيب عن أبى هريرة مرفوعا « اسْتَرشِدُوا العاقلَ تُرْشَدُوا ، ولا تَعْصوهُ فَتَنْدمُوا » .

هذه صورة الإسلام المشرقة ، وتلك تعاليمه الخالدة ، يجعل من أوصاف المؤمنين وأخلاقهم التّشاور فى الأمر وجمع الرأى إلى الرأى .

٣٩ - (وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ) :

المعنى : ومن جملة أوصافهم أنهم الذين يغضبون إذا بغى عليهم أحد ، وينتقمون ممن اعتدى عليهم وظلمهم ، ويقتصرون فى الانتصار على ما جعل الله

لهم ولا يعتدون ، ومعنى القصر المفهوم من قوله تعالى :(هُمْ يَنتَصِرُونَ) أنهم هم الذين لا يتجاوزون الحد فى أخذ حقوقهم ،وغيرهم يعدو ويتجاوز ، وهذا لا ينافى أنهم يعفون ويصفحون فلكل محله ومجاله

فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه وذنبه محمود ، ولفظ المغفرة مشعر به ، كما أن الانتصار من المُخاصم المُصِرّ المعاند محمود ، ولفظ الانتصار مشعر به ولو جاء أحدهما موضع الآخر لكان مذموما كما يشير إلى ذلك قول الشاعر

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإنْ أنت أكرمت اللَّئيم تمرَّدا

فوضع النَّدى فى موضع السّيف بالعلا ∴ مُضِرّ كوضع السّيف فى موضع النَّدى

وعن النّخعى أنّه كان إذا قرأ هذه الآية قال: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق .

(وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾)

المفـردات :

(سَيِّئَة) : الخطيئة والذنب

(سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) . سُمِّيت مُقَابلة السيّئة سّيئة لمشابهتها لها فى الصورة ، وقال الزمخشرى : لأنها تسوء مَن تنزل به .

(عَفَا) : صفح عمن أساء إليه .

(وَأَصْلَحَ) أى : وأصلح بينه وبين مَن يُعَاديه بالعفو والإغضاء .

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) : فثوابه على الله .

(لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) : يكره ويبغض المعتدين .

(وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) : ولَمَنْ عَاقَبَ بمثل ما عُوقِب به .

(سَبِيلٍ) : مؤاخذة ولوم وحرج .

(وَلَمَن صَبَرَ) : سكت وحبس نفسه عن الانتصار لنفسه .

(وَغَفَرَ) : تجاوز عن ظالمه .

(لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أى : لمن الأُمور الجادة المطلوبة شرعاً .

التفسير

٤٠ - (وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : شرع الله الانتصار من الظالم بأخذ الحق منه ومقابلة السيئة بمثلها من غير زيادة ، وندب إلى الفضل وهو العفو والإصلاح ، وهذا أسمى مما وصلت إليه البشرية قديما وحديثا من تقنين وتشريع ، فقد شرع القصاص ؛ لأن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يأخذ الإنسان حقَّه لنفسه وينتقم ممن يعتدى عليه ، وبخاصة مع النفوس المريضة التى لا يُقَوِّمها ويُصْلح شأنها إلا رَدْعُها والانتقام منها . ولكنه مع هذا ندب ودعا إلى الفضل وهو العفو والإحسان ، ليرتقى بالبشرية إلى أعظم درجاتها ، وليرتفع بها إلى الذروة فى السَّماحة والمروءة ، وفى قوله - تعالى - : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) بيان لفضيلة العفو والتسامح لأن الفاعلَ لذلك لن يضيع حقه ولن يذهب أجره وفضله ، بل أجره على الله ، وناهيك بمن كان أجره على الله .

وعن النبى ﷺ « إذا كان يَوم القيامةِ نادَى منادٍ : مَنْ كانَ له علَى اللهِ أَجْرٌ فَلْيَقُم : قال : فيقُوم خَلْقٌ فَيُقالُ لهم : ما أَجْرُكُم علَى اللهِ ؟ ، فيقولون : نحن الذين عَفَوْنا عَمَّنْ ظَلَمَنا : فَيُقال لهم : ادْخلوا الجنّة بإذنِ اللهِ » الكشاف .

ومعنى قوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) أنه يمقت ويبغض البادئين بالظلم ، والذين تجاوزوا الحد فى الانتقام وفيه إشارة إلى أن الانتصار مظنة التجاوز وعدم الاعتدال عند أخذ الحق وبخاصة فى حالة الغضب والتهاب الحمية فربما يجاوز المنتصر لنفسه حقه وهو لا يشعر وفى ذلك حَثٌّ على العفو والصفح .

٤١ ـ (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) :

المعنى : ولَمَنْ عاقبوا المُعتدين بمثل ما اعتدوا به عليهم دون زيادة فهؤلاء ما عليهم من لوم ولا مُؤاخذة ولا جُناح .

٤٢ ـ (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

فى هذه الآية تعيين لمن عليهم السبيل بعد نفيه عن المنتصرين بعد ظلمهم، والمعنى : إنما الحرج واللّوم على الّذين يبدءون الناس بالظلم أو يزيدون فى الانتقام ويتجاوزون حقهم ويتكبرون فى الأرض بغير الحق ، فهؤلاء لهم عذاب مُوجع شديد الإيلام .

٤٣ ـ (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

المعنى: وأقسم لَمَن صبر على الظُّلم والأذى وغفر ولم ينتصر لنفسه وتجاوز عن ظالمه وفوّض أمره إلى الله إنّ ذلك المذكور من الصبر والمغفرة لمن عزم الأُمور أى لمن الأُمور الجادة العظيمة التى ينبغى للعاقل أن يُوجبها على نفسه ويلتزم بها ،لأنها مطلوبة شرعا وهى من الصّفات الحميدة التى رغّب الشّارع فيها وأجزل لصاحبها العطاء ، روى أحمد عن أبى هريرة قال : « إنّ رجلا شتم أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ والنبى ﷺ جالس فجعل النبى يعجب ويبتسم فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله ، فقام النبى ﷺ ، فلحقه أبو بكر ، فقال يا رسول الله : إنّه كان يَشتُمُنى وأنتَ جالسٌ ، فلما رَدَدْتُ عليه بعضَ قولِه غَضِبتَ وقمْتَ قال : إنهُ كان معكَ مَلَكٌ يردُّ عَنكَ فلمَّا رَدَدْتَ عليهِ بعضَ قولِه حضَرَ الشيطانُ فلمْ أكن لأَقعُدَ مع الشَّيطان »

(وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَمن يُضْلِلِ اللهُ) : ومَنْ يَخذُلْه اللهُ لأنّه ضَلَّ الطَّريق لسوء اختياره .

(فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ) أى : فماله من ناصر يتولّاه بعد خذلان الله إيّاه .

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ) : هل إلى رجوع إلى الدنيا .

(مِن سَبِيلٍ) : من طريق .

(خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ) : خاضعين متضائلين بسبب الذلّ .

(يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ) : ينظرون إلى النّار مُسارَقة خوفاً منها .

(الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) أى : خسروا أنفسهم بالتّعرض للعذاب الخالد وخسروا أهليهم بالتفريق بينهم .

(مُقِيمٍ) : سرمدى دائم .

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللهِ) : ليس لهم غير الله يدفع عنهم عذابه .

التفسير

٤٤ - (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ) :

والمعنى : ومن يبعده الله عن طريق الحق والهدى لسوء اختياره ، فما له من ناصر يتولّى هدايته بعد خذلان الله إيّاه ، وترى الكافرين حين يشاهدون عذاب الآخرة ويعاينون أهوالها يسألون ربَّهُم وهم فى ذِلة وانكسار : هل من طريق إلى الحياة الدنيا حتى نؤمن ونعمل صالحا غير الذى كُنَّا نعمل .

يتمنون ذلك ولكن أنَّى لهم ذلك ؟ فليس إلى مردّ من سبيل ، هكذا قضى الله ولا رادَّ لقضائه .

٤٥ - (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ) :

وترى الظالمين - كذلك - يعرَضون على النار خاضعين متضائلين بسبب الذّل الذى اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله -تعالى- ، وبما يلاقون من الأهوال عقابا لهم -يراهم- يُسَارقُون النَّظر إلى النَّار خوفاً من مكارهها كما ترى الْمُهيأ للقتل ينظر إلى السَّيف ، وهكذا شأْن الناظر إلى الشدائد لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها أو يملأ عينيه منها كما يفعل إذا نظر إلى الأشياء المحبوبة .

ويقول الذين آمنوا يوم القيامة : إن الخاسرين خسارة عظيمة هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فأُلقِى بهم فى النّار ، وفقدوا مُتْعَتهم وحُرِموا نعيمهم فخسروا بذلك أنفسهم وحيل بينهم وبين أزواجهم وأحبابهم وأقاربهم فخسروهم .

وينبه الله -تعالى- فى ختام الآية إلى أن الكافرين فى عذاب دائم أبدى لا خروج لهم منه ولا محيد لهم عنه .

٤٦ - (وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ) :

المعنى : وما كان للظالمين أولياء يَلُون أمرهم ، ولا نصراء مما عبدوهم من دون الله وممن أطاعوهم فى معصيته يدفعون عنهم عذابه وينقذونهم منه ، ومن يضلّه الله عن الهدى وقد اختار الكفر السلوك السيء وأَصَرَّ عليه فما له من طريق موصّل إلى الحقّ فى الدّنيا ، ولا إلى الجنّة فى الآخرة ، لينجّيه من سوء المصير وعذاب السّعير .

(ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم) : سارعوا إلى إجابته بالتوْحيد والعبادة .

(لَا مَرَدَّ لَه مِنَ اللهِ) : لا يردّه اللهّ بعد إذ أتى به

(وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) : وما لكم من إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم .

(حَفِيظاً) : رقيباً ومُسيطرا .

التفسير

٤٧ - (اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَالَكُم مِّن نَّكِيرٍ) :

أى : سارعوا إلى إجابة خالقكم ومربيكم وذلك بالتوحيد والعبادة مِن قبل أن تنتهى الحياة التى هى فرصة للعمل ، ويأْتى يوم القيامة والحساب الذى لا يرده الله بعد إذ قضى

به ، ليس لكم يومئذ من ملاذ تلجئون إليه وتتحصنون به من العذاب ، وما لكم من مُنكِر لعذابكم ومُخَلِّص لكم منه ، أو لن تقدروا أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوِّن فى صحائف أعمالكم ، وتشهد به أعضاؤكم .

٤٨ ـ (فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ) :

فإن أعرض المشركون وامتنعوا عن إجابتك والإيمان بدعوتك فلا تحزن عليهم أيها الرسول ، فما أرسلناك عليهم رقيبا ومُسيْطرا ، إنما كلفت بالبلاغ وتأدية الرسالة وقد بلغت وأديت وإن شأن الناس وطبيعتهم إذا منحناهم من لدنا نعمة كالصحة والغنى والأمن فرحوا واستبشروا ، وإن تُصِبْهم سيئة من بلاء ومرض وفقر بسبب معاصيهم وماصدر منهم من السيئات فإنهم ينسون النِّعْمة ويجزعون لنزول البلاء كُفْرا وجُحُودا ، إلَّا مَنْ هداه الله وألهم رشده وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالمؤمن كما قال ﷺ : « إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ فشكَرَ فكانَ خيرا له وإنْ أصابَتْهُ ضراءُ فصبَر فكان خَيرا له وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلَّا لِلمؤمن » .

(لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾)

المفـردات :

(أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا) : يتفضل على من يشاء بالجمع بين الذكران والإناث فى ذريته .

(عَقِيماً) : لا ولد له .

التفسير

٤٩ ، ٥٠ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) :

لما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك أنَّ له - لا لغيره - ملك السموات والأرض فهو خالقهما والمتصرف فيهما يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فيهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإناث لا غير ، وبعضا بالذكور دون الإناث ويتفضل - سبحانه وتعالى - على من يشاء من عباده بالجمع بين الذكور والإناث على التعاقب أو فى حمل واحد ، ويجعل من يشاء عقيماً لا ولد له .

وتقديم الإناث على الذكور فى الآية : قيل إنه لبيان أن الله يُعطى ما يُريدُه لا مايُريده الناس، لأن الناس تهوى الذكور وخصوصا العرب ، وقيل : التقديم توصية برعايتهن لضعفهن ولا سيما أنهم قد كانوا قريبى عهد بالوأد وفى الحديث « مَنْ ابتُلِيَ بِشيء من هذه البناتِ فأَحْسنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْرا مِنَ النار » وقال الثَّعالبى : إشارة إلى ما تقدم فى ولادتهن من اليُمْن ، وعن قتادة : من يُمْنِ المرأة تبكيرها بأُنثى .

جاء لفظ الذكور مُعَرَّفا ولفظ الإناث مُنَكَّرا ، للتنويه بما للذكور - عادة - من مكانة فى نفوس الآباء والرغبة فيهم ، لأن التعريف تنويه وإشادة .

* (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾)

يجمل بنا قبل الدخول فى تفسير هذه الآية الكريمة أن نتعرض لتعريف الوحى ونبيِّن أقسامه ، حتى يتضح المقام ويكمل البيان فنقول وبالله التوفيق :

ـ الوحى وأقسامه :

يطلق الوحى ويراد منه الإيحاء ، كما يطلق ويراد منه الموحى به ، حسب مقتضيات الأحوال .

(أ) فالوحى بمعنى الايحاء :

فى الشرع ، وفى اصطلاح علماء الكلام[1] هو إعلام الله أنبياءه ما يريد إبلاغه إليهم بما يفيد العلم اليقينى القطعى بأن ذلك من عند الله ـ عز وجل ـ وأنواعه ثلاثة :

١ ـ إعلام بطريق الإلقاء فى القلب والنفث فى الروع ويكون فى اليقظة كما يكون فى المنام .

٢ ـ الكلام من وراء حجاب ، أى بدون رؤية النبى لربه ـ عز وجل ـ بحيث يسمع كلامه ولا يراه .

٣ ـ إعلام الله نبيه ما يريد أن يبلغه إياه بوساطة الملك .

(ب) الوحى بمعنى الموحى به :

ينقسم هذا النوع من الوحى إلى متلوّ وغير متلوّ :

١ ـ فمن الوحى المتلو :

القرآن الكريم الذى جعله الله آية باهرة ، ومعجزة قاهرة وحجة باقية على صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وتكفل ـ سبحانه ـ بحفظه من التبديل والتحريف إلى قيام الساعة فقال : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[2] .

نزل به الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ على النبى ﷺ بلفظه ومعناه يقظة من غير أن يكون لواحد منهما دخل فيه بوجه من الوجوه ، وإنما هو تنزيل من الله العزيز الحكيم قال تعالى : «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ[3] » كما أن من الوحى المقروء الكتبَ السماويةَ المنزلة من الله على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كالزبور على نبى الله داود ، والتوراة على رسول الله موسى ، والإنجيل على رسوله عيسى ـ عليه السلام ـ وقد أصاب هذه الكتب التغيير والتحريف

(١) أى علماء التوحيد. (٢) سورة الحجر الآية ٩

(٣) سورة الشعراء الآيات من : ١٩٢ ـ ١٩٥

بعد وفاة الأنبياء الذين أُرسلوا إليهم، إذ لم يتكفل الله بحفظها لأنها ليست نهاية التشريع ولا خاتمته، فالتشريع الخاتم جاء به النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن هنا كان القرآن الكريم مهيمنا ورقيبا على ما جاء فيها، قال تعالى: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ»[1].

٢ – الوحي غير المتلو وهو ما يلي:

(ا) السنة النبوية المطهرة لقوله –تعالى–: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»[2] والسنة الشريفة منزلة من عند الله بالمعنى، أما لفظها فهو من عند النبي ﷺ وليست معجزة بألفاظها وأسلوبها ولا متعبدا بتلاوتها كالقرآن الكريم، ولا تصح الصلاة بها بخلاف القرآن العظيم، فإنه معجزة في ألفاظه، متعبد بتلاوته، ولا تصح الصلاة بدونه.

هذا، ومن الوحي: اجتهاد الرسول ﷺ، لأن الله –جل شأنه– يقره عليه إذا أصاب، وينبهه ويرشده إلى الخطأ إن أخطأ، ولا يقره عليه بل يدله على الصواب.

وفي عصرنا الحديث –ظهر بعض المسلمين الذين ينكرون العمل بالسنة وقد أخبر الرسول عنهم بذلك فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معديكرب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ إني أوتيتُ القرآنَ ومثله معه، ألاَ يُوشكُ رجلٌ شبعان على أريكته فيقول: عليكم بهذا القرآنِ فما وجدتُم فيه مِن حلالٍ فأحِلوه، وما وجدتم فيهِ من حرامٍ فَحَرِّموه، ألاَ إنَّ ما حرَّم رسولُ اللهِ كما حرَّم اللهُ».

(ب) الحديث القدسي: وهو ما كان مضافا إلى الله –تعالى– كقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إنِّي حرَّمت الظلمَ على نفْسي وجعلتُه بينكم محرَّما فلا تَظالَموا» وهو كالحديث النبوي معناه من عند الله، أما لفظه فقيل: إنه من عند الرسول ﷺ ونسب إلى الله – سبحانه – لأنه موجه منه – جل شأنه – إلى عباده ولزيادة الاهتمام بمضمونه، وحث النفوس

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٤٨

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣، ٤

على العمل بما اشتمل عليه من المعانى والآداب . وقيل: غير ذلك من الأقوال التى لا تخرجه عن كونه وحيا، وقد يطلق الوحى على غير ما جاء من عند الله إلى رسله، كأن يُطلق ويراد منه الإلهام، مثل قوله -تعالى-: «وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»[1] كما يطلق ويراد منه التسخير مثل قوله -تعالى-: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ»[2] وبعد هذه المقدمة نعود إلى شرح الآية ومفرداتها كما يلى:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ):

المفردات:

(وَحْيًا): إلقاء فى القلب.

(أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ): أو يكلمه من وراء حجاب دون أن يراه.

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً): أو يبعث الله المَلَكَ للأنبياء ليبلغهم ما أمر الله به.

(عَلِىٌّ): متعال عن صفات المخلوقين.

(حَكِيمٌ): يجرى -سبحانه- أفعاله على سَنَن الحكمة.

روى فى سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للنبىّ ﷺ: ألا تكلم اللهَ وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى، ونظر إليه، فإنا لا نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فقال النبى ﷺ: لم ينظر موسى إلى الله فنزل قوله -تعالى-: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ..) إلخ.

التفسير

٥١ - (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ):

---

(١) سورة القصص الآية ٧

(٢) سورة النحل الآية ٦٨

أى : وما صح وما استقام لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله إلّا نفثا وإلقاء فى قلبه مناما – كما حصل لإبراهيم – عليه السلام – حينما أمر بذبح ولده قال – تعالى – حكاية عن ذلك : «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّيَ أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ»[١].

وقد حصل الوحى بالنفث والإلقاء فى القلب لرسولنا ﷺ فقد ورد أنه قال : «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ فى رُوعِى أن نفسا لن تَموتَ حتى تَسْتكمِلَ رزقَها وأجَلها ، فاتقوا اللهَ وأجْمِلوا فى الطلبِ ، خذوا ما حلَّ ودعوا ما حَرُمَ».

(أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) أى : أن يسمع الرسولُ الكلام من غير أن يبصر من يكلمه والمراد أن السامع محجوب عن رؤية ربه – جلت قدرته – فى الدنيا أما فى الآخرة فيمنحها الله للذين قال فى حقهم : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»[٢].

وقد حصل الوحى من وراء حجاب لموسى – عليه السلام – فى بدء رسالته وقد رأى نارا فطلب من أهله المكث والبقاء فى مكانهم حتى يستطلع الأمر قال تعالى : «فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ»[٣] وقد حدث ذلك له أيضاً عند مجيئه لميقات ربه قال تعالى : «وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِيَ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً»[٤] الآية أما رسولنا ﷺ فقد كلمه ربه من وراء حجاب ليلة الإسراء والمعراج عند فرض الصلاة ومراجعته ربّه – عز وجل – فى التخفيف عن أمته فى عدد الصلوات.

كما كلم الله – سبحانه وتعالى – ملائكته من وراء حجاب فى أمر خلق آدم – عليه السلام – وجعله خليفة فى الأرض ، قال تعالى : «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً»[٥].

---

(١) سورة الصافات ، من الآية ١٠٢

(٢) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة طه الآية ١١ وجزء من الآية ١٢

(٤) سورة الإعراف من الآية ١٤٣

(٥) سورة البقرة من الآية ٣٠

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) أى :أو يبعث الله ـ تعالى ـ ملكا رسولا كجبريل ـ عليه السلام ـ إلى أنبيائه فيسمع الأنبياء صوت الملك ، وتارة يرونه عيانا فى صورة بشر كما كان يتمثل جبريل ـ عليه السلام ـ لرسولنا ﷺ فى صورة أعرابى أو فى صورة الصحابى الجليل دحية الكلبى ؛ وتارة أخرى كان يراه الرسول ﷺ فى صورته الحقيقية . وقد يأتى الوحى دون رؤية النبى ﷺ للملَكِ وإنما يسمع عند قدومه دويّا أو صلصلة شديدة لا يعلم إلا الله كنهها وحقيقتها فيعتريه ﷺ حالة روحية لا يدرك الحاضرون منها إلاّ أماراتها الظاهرة مثل ثقل البدن وتَفَصُّد جبينه الشريف عرقا . روى البخارى ـ رضى الله عنه ـ عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما ـ عن أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الحارث بن هشام سأل النبىّ ﷺ فقال :يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فينفصم عنى وقد وعَيْتُ ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملكُ رجُلًا فيكلمنى فأَعِى ما يقول ،قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينَهُ ليتفصَّدُ عَرقاً » .

وتارة يسمع الحاضرون عند وجهه الكريم دويًّا كدوىّ النحل عند مجىء الوحى أخرج الترمذى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحى يسمع عند وجهه كدوىّ النحل » (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ) أى : فيخاطب الملَكُ الأنبياء بإذن الله وأمره ما أراد الله أن يبلغه لهم .

(إِنَّهُ عَلِيٌّ) أى : إن الله ـ جلت قدرته ـ متعال عن مشابهة الخلق أجمعين (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] .

(حَكِيمٌ) : يجرى أفعاله على الحكمة وهى إصابة الحق على أكمل وجه ، وخلاصة معنى الآية الكريمة : وما صح ولا استقام أن يكلم الله أحدًا من خلقه إلّا على صورة من الصور

---

(١) سورة الشورى من الآية ١١ .

التى بينتها الآية الكريمة بأن يلقى الله فى قلب رسوله وينفث فى روعه -مناماً أو يقظة- مما يريده منه ، أو يكلمه من وراء حجاب فيسمع الرسول الكلام دون أن يرى شيئاً ، أو يرسل الله للأنبياء ملكاً يبلغهم ما أمر به من لدن ربه وليس فوق ذلك ولا دونه وحى ولا تبليغ من الله .

فما يدعيه المنجمون إنما هو الرجم بالغيب ، وكذلك ما يخبر به الجن ، والله -سبحانه- متعال ومنزه عن مماثلة ومشابهة الخلق أجمعين ، يجرى أفعاله على مقتضى حكمته الرشيدة .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(رُوحاً) : قرآناً وقيل : غير ذلك .

(مِنْ أَمْرِنَا) : من لدنَّا .

(نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) : نخلق ونوجد الهداية بإرادتنا إلى من نختاره من عبادنا الذين آثروا الحق على الباطل .

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ) : وإنك لترشد وتدل .

(إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : إلى طريق معتدل موصل إلى المطلوب لا يضل من يسلكه .

(أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) : ألا إلى الله وحده لا إلى غيره يرجع شأن الخلق وأمورهم كلها يوم القيامة .

التفسير

٥٢ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ ...﴾ إلخ الآية :

أى : ومثل إيحائنا إلى الأنبياء من قبلك ، أوحينا إليك يامحمد القرآن العظيم الذى هو من أمرنا ومن شأننا ، - أوحيناه - كما شئنا على من شئنا بهذا النظم المعجز والتأليف المحكم. وسمى القرآن الكريم روحا لأن الله يحيى به القلوب والنفوس من موت الجهل والغفلة والضلال .

وقال ابن عباس روحاً : نبوة . وقال الحسن وقتادة :رحمة من عندنا ، وقال الربيع : جبريل والأول أولى وأظهر .

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى : ما كنت يامحمد تعلم ما هى الكتابة لأنك من قوم أميين لا يعرفونها ،ولا تعرف ما هو الإيمان حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك من أهل الكتاب ، وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»[1] - روى هذا المعنى عن ابن عباس فإنه لم يكن قبل بعثته وتنبيئه يعلم أنه سيكون رسولا ، وكذلك لم يكن على دراية ومعرفة بالملائكة والعالم العلوى : وما أطلعه الله عليه وعلمه إياه بعد النبوة من الشرائع والأحكام ،وهذا لا ينفى أنه ﷺ كان مؤمناً بربه قبل النبوة لأنه ﷺ كان يتعبد فى الغار كما روى أنه قال للراهب بحيرا فى أثناء رحلته إلى الشام حين استحلفه الراهب باللات والعزى ،قال له الرسول ﷺ : «لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» . وقد ثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسجد لصنم ولا أشرك بالله ولا زنى ولا شرب الخمر ،ولا شهد ما كانوا يجتمعون عليه ويسمرون فيه ، ويأتون ما يباح وما يحرم ، قال ﷺ : « لمَّا نشأت بُغضت إلىَّ الأوثان وبُغض إلىَّ الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعُد » .

وهذا شأن كل الأنبياء فقد اصطفاهم ربهم واختارهم وما عرفوا بشرك أو كفر قبل النبوة وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٨

(وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) أى : ولكن جعلنا القرآن الكريم وأنزلناه نورًا ونبراساً نضىء به الطريق لعبادنا ليكونوا على بينة من أمرهم ، ونوجد ونخلق به الهداية فيمن نريد هدايته من عبادنا فنجعله راشدًا مهدياً وذلك وفق اختيار العبد وصرف نفسه نحو الاهتداء بكتاب ربه والاهتداء بما جاء به .

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) أى : وإنك يا محمد لتدل وترشد إلى صراط سوى وسبيل قويم وحقيقة سمحاءٍ ودين خالص ، فهدايتك هداية إرشاد وتبليغ فحسب ، قال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ »[1] وقال – جل ثناؤه – : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[2] وتفخيماً لشأن هذا الصراطِ المستقيم وتقريرا لاستقامته واعتداله وتأكيدًا لوجوب سلوكه نسبه – سبحانه – وأضافه إلى نفسه فقال : (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَافِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) وَوَصَفَ – عز وَجَلَّ – ذاته بأنه له – وحده – ما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً فيما نعلم منهما ومالا نعلم فكل شىء تحت قبضته وقهر عظمته .

(أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) أى : ألا إلى الله وحده دون سواه ترجع أمور المخلوقات جميعاً يوم القيامة ليحكم فيها – سبحانه – بحكمه العادل وقضائه المبرم فالوسائط قد ارتفعت والناس كلهم قد جُردوا من حولهم وقوتهم فقد سلبوا الأسباب التى كانت لهم فى الدنيا .

وفى هذا من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم بالثواب المقيم والفوز العظيم ، كما فيه من التهديد والوعيد بالعذاب الشديد للضالين المكذبين .

---

(١) سورة القصص من الآية ٥٦ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٩٩ .

« سورة الزخرف »

هذه السورة مكية وآياتها تسع وثمانون آية .

وسميت بهذا الاسم لورود كلمة (وزخرفا) ، وصلتها بسورة الشورى التى قبلها : أن كلا منهما أشادت بالقرآن الكريم فختمت الشورى بالآيتين :

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا » إلى قوله تعالى : « أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ، وافتتحت سورة الزخرف بالقسم بالقرآن الكريم على أنه محفوظ فى أم الكتاب (وهو اللوح المحفوظ) ، وأنه من عند الله عظيم القدر رفيع الشأن منزل على مقتضى حكمة الله ـ جل وعلا ـ .

بعض مقاصد السورة :

١ ـ أبانت السورة كون القرآن الكريم موصى به من عند الله ـ تعالى ـ وأنه نزل بلسان عربى مبين ليفهمه العرب وليتدبروا آياته عساهم يعقلون ما اشتمل عليه من الأحكام ومكارم الأخلاق فيحملهم بذلك ويدفعهم إلى الإيمان به .

وإيثار العرب بتحمل مسئولية الرسالة المحمدية العالمية ، لأن لهم أخلاقا كريمة وصلابة فى الدين ، وشجاعة فى الحق ، وصدقاً فى الوعد ، وهمة فى الوفاء .

٢ ـ أن السورة جاءت بتهديد المشركين بإهلاكهم كما فعل بمن قبلهم ، وذلك إذا استمروا على كفرهم وعنادهم (فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) .

٣ ـ وضحت هذه السورة الكريمة بعض الآيات الكونية التى تظهر قدرة الله وتفرده بالجلال وأنه ـ سبحانه ـ حقيق بالوحدانية ، وذلك عن طريق لفت نظر المخاطبين إلى ما هو واضح وبيّن فى ملكه من أرض مهدها وبسطها لهم إلى سماء أنزل منها ماء بمقدار معلوم فأحيا به الأرض بعد موتها وأنبت فيها الزرع والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات ، وأنه ـ سبحانه ـ سيخرج الناس ويبعثهم من قبورهم يوم القيامة ، كما يحيى الأرض

وينبت فيها النبات، وأنه - جل شأنه - خلق للناس جميع الأصناف التى تنفعهم فى معاشهم، وسخر لهم السفن والأنعام ليركبوها ويستقروا على ظهورها (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ).

٤ - تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلى من معتقدات قبيحة، كنسبة الولد إلى الله (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا) كما نعت عليهم سفههم فى دعواهم أن الله جعل لنفسه البنات وآثرهم واصطفاهم بالبنين، كما عابت عليهم أنهم جعلوا الملائكة إناثا وتوعدتهم (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ).

٥ - أثبتت السورة وأكدت أن إبراهيم - عليه السلام - الذى كان المشركون يدعون أنهم فى شركهم على دينه وطريقته - أثبتت - أنه برئ مما يعبدونه (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ).

٦ - أبانت السورة أن المشركين يقيمون أمر اختيار الرسول ﷺ على مقاييس فاسدة ومغايير خاطئة باطلة (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) فرد الله عليهم مسفها رأيهم وموبخا لهم على سوء فهمهم (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ).

٧ - وضح الله لهؤلاء المشركين أن الاستعلاء فى الأرض لا ينجى من عذاب الله، فقد أهلك الله فرعون ومن معه لتسلطهم وكفرهم واغترارهم بما لديهم من الدنيا وزخرفها (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) وأنهى - سبحانه - هذه السورة الكريمة بعرض بعض مشاهد يوم القيامة، كالنعيم الذى يسعد به المؤمنون (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) كما أبانت ما يناله المجرمون من نكال وعذاب أليم (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) وفى آخر آياتها يسلى الله - تعالى - رسوله ﷺ ويطمئنه ويأمره بالإعراض عن الكافرين، كما يهددهم ويتوعدهم (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(جَعَلْنَاهُ) : أنزلناه .

(فِى أُمِّ الْكِتَابِ) : فى اللوح المحفوظ .

(لَدَيْنَا) : عندنا .

(لَعَلِىٌّ) : لرفيع المنزلة عظيم القدر .

(حَكِيمٌ) : محكم لا ينسخه غيره ، وقيل : غير ذلك .

التفسير

١ ـ ٢ (حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

١ ـ (حمٓ) : هذه الحروف وما يماثلها من الحروف الواردة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم قد سبق الكلام فيها مطولا فى أول سورة البقرة ،وفى الحق أنه لم يأت القرآن الكريم بشئ فى معنى هذه الكلمات ، كما لم يرد فى سنة رسول الله ﷺ أثر فى ذلك ، والأولى أن نترك أمر المراد منها إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وقد كان بعض السلف يقولون فيها : الله أعلم بمراده .

٢ ـ (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) :هذا قَسَم بالقرآن الكريم ،أى أُقسم بالكتاب الواضح البيّن ، الظاهر الدلالة فهو من أبان اللازم بمعنى اتضح ، أو الموضح لأُصول مايحتاج إليه من أمور الدين فهو حينئذ يكون من أبان المتعدى إلى المفعول .

٣ـ (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : هذا هو جواب القسم ، فالله ربنا يقسم بكتابه المبين على أنه أنزله قرآنا عربيا بلغتكم يا معشر العرب ، وذلك لتتدبروا آياته وتقفوا على معجزاته وأسرار بلاغته ، ليدفعكم ذلك ويدعوكم إلى الإيمان والعمل بما جاء فيه ، وفى القسم والحلف بالكتاب المبين على أن القرآن الكريم منزل من عند الله دليل على شرف هذا الكتاب وعلو مكانته وهو من الأيمانِ الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه .

٤ ـ (وَإِنَّهُ فِىٓ أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ) :

أى : وإن القرآن الكريم مثبت عند الله فى أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ كما يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ »[1] ووصف القرآن بأنه فى أم الكتاب للإشارة إلى كمال الحفظ ، وعظيم الرعاية ، وتمام العناية به ، ويؤكد ذلك ويعززه قوله ـ سبحانه ـ : (لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ) أى : أنه عندنا فى مكان قدسى محاط بكمال التقدير والتعظيم والحفظ ، كما أنه رفيع الشأن ، جليل القدر ، تسمو منزلته بين سائر الكتب المنزلة ، لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار ومحكم التشريعات ، وجميل السجايا ، وكريم الشمائل والأخلاق (حَكِيمٌ) أى : أن القرآن ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره ، بل هو باق كتاب حُكم وتشريع ، وخاتم للكتب ، فهو صالح لكل زمان ومكان ، كما أنه هو حاكم وشاهدٌ على غيره من الكتب المنزلة بين الصحيح فيها والموضوع ، قال تعالى : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ »[2]

---

(١) سورة البروج الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٨ .

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ) : أفننحى ونبعد عنكم ،وهو مأْخوذ من قولهم :ضرب غرائب الإبل ، إذا نحاها وأبعدها إذا دخلت على إبله عند الوردوالشرب .

(الذِّكْرَ) : القرآن الكريم . والذكر فى اللغة بمعنى الشرف ، وكذلك القرآن ، فهو شرف للعرب .

(صَفْحاً) أى : إعراضاً عنكم ،وأصل الصفح أن تولى الشئ صفحة عنقك أو جانبك إعراضاً عنه .

(مُّسْرِفِينَ) : متجاوزين الحد فى الكفر والضلال .

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا) : كم : يراد بها هنا التكثير أى : كثيراً أرسلنا .

(بَطْشاً) : شدة وعنفا .

(مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) : سبق فى غير موضع منِ القرآن الكريم قصتهم العجيبة .

التفسـير

٥ ـ (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ) :

بيّن الله ـ سبحانه ـ أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب لكى يعقلوه ويتدبروا آياته ، ولكنهم مع هذا كله ظل أكثرهم على الإسراف فى العناد والضلال ، فقال لهم الله : (أَفَنَضْرِبُ

عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً) أى : أنهملكم فننحّى عنكم إنزال القرآن الكريم الذى فيه شرفكم ورفعتكم ، أنصرفه عنكم لأنكم لازلتم مستمرين ومنهمكين وغارقين فى الإسراف والضلال متجاوزين الحد فى الكفر مصرين عليه أنفعل ذلك بكم ؟ ولكن حكمتنا تقتضى أن نُذَكركم وننزل القرآن الكريم عليكم ، ولا نترك ذلك بسبب أنكم تعرضون عنه ولا تلتفتون إليه ، بل نفعل ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة : وقيل – المعنى – إن حالكم من الإعراض والغلو فى الإسراف والكفر وإن اقتضى ترككم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر وتمكثوا فى العذاب الدائم ، لكننا لسعة رحمتنا ومزيد فضلنا لا نفعل ذلك بكم بل نرشدكم وندلكم على الحق والصراط المستقيم . وهذا الرأى موافق فى المراد لما سبقه .

قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّته أوائل هذه الأُمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرّره عليهم برحمته .

٦ ، ٧ – (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

أى : وكثيرًا ما أرسلنا وبعثنا أنبياء ورسلا قبلك فى أُمم سبقت وأقوام سلفت كانت تأتيهم رسلهم بالبينات والذكر ، فقابلوهم بالسخرية والاستهزاء وشتى ضروب الأذى . ولكن أنّى لهم أن يفلتوا من عقابنا أو يسبقونا ويعجزونا عن أن ننكل بهم ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

٨ – (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : فأنزلنا عذابنا الشديد المهلك المستأصل بهؤلاء القوم الذين كانوا أقوى وأشد من قومك بأساً وأكثر عنفاً وبطشاً وأصلب عودًا وأوفر جمعاً وعددا ، ولم يغنهم ذلك أو يمنعهم من عذابنا شيئاً ، فمنهم من أرسل الله عليه الحصى والحجارة ومنهم من أخذه الله بالزلزال والصيحة وصاعقة العذاب الهون ، ومنهم من خسف الله به وبداره الأرض ، ومنهم من أغرقه الله وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

وفى هذا مزيد من إدخال السرور والطمأنينة على قلبه ﷺ ووعد له بأن الله ناصره على قومه ، كما فيه من الوعيد بالويل والهلاك لهؤلاء الذين عاندوا رسول الله وكذبوه واستهزءوا به وسخروا منه .

(وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) أى : سبق وسلف فى القرآن الكريم فى غير موضع منه قصصهم العجيبة فى التكذيب والعقوبة التى أنزلها الله بهم ، والتى من حقها أن تسير سير المثل شهرة وذيوعاً .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(الْعَزِيزُ) : الذى لا يقهر ولا يغلب ، وقيل : الذى لا نظير له .

(مَهْدًا) : مكاناً مبسوطاً موطأً .

(سُبُلًا) : جمع سبيل أى : طرقاً تسلكونها .

(بِقَدَرٍ) : بمقدار تقتضيه حكمته .

(فَأَنشَرْنَا) : أحيينا .

(مَّيْتاً) : خالية من النبات فهى كالميت .

(تُخْرَجُونَ) : تبعثون وتنشرون من قبوركم .

(الْأَزْوَاجَ) : جمع زوج وهو الصنف والنوع .

(الْفُلْكِ) : السفينة ويستعمل مع المفرد والجمع ، وهو فى الجمع بمعنى السفن .

(لِتَسْتَوُواْ) : لتستقروا .

(سَخَّرَ) : ذلل وطوع .

(مُقْرِنِينَ) : مطيقين .

(لَمُنقَلِبُونَ) : لراجعون إلى الله فى الآخرة .

التفسير

٩ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) :

أى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ليقولن دون تردد ولا تشكك :خلقهن وبدأهن (الْعَزِيزُ) :الذى لا يقهر ولا يغلب ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه (الْعَلِيمُ) : الواسع العلم المحيط بكل شئ ،فهو قيوم السموات والأرض ،فألسنتهم ناطقة وفطرتهم شاهدة وقلوبهم موقنة بأنه - سبحانه - خالق السموات والأرض وأنه هو العزيز العليم ، ولكنهم مع هذا الإقرار يشركون معه فى الربوبية ،مالا يستطيع جلب الخير ولا دفع الشر ، وليزيدهم الله - سبحانه - تذكيرًا وعلماً به وتبياناً لبعض نعمه وآلائه عليهم قال :

١٠ - (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

أى : أنه - سبحانه- مع كونه قد خلقكم وبرأكم لم يترككم سدى دون عناية أو رعاية بل هو - جل شأنه- قائم على كل أسباب حياتكم عظيمها ودقيقها (جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا)

أى : بسط لكم الأرض ووطَّأها لكم تستقرون عليها وتترددون فوقها بيسر وسهولة (جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) أى : خلق لكم فيها سبلا وطرقا لتمشوا فيها وتسلكوها فى ظعنكم وإقامتكم (لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أى : لكى تهتدوا وترشدوا إلى ما تقصدون من أماكن ، وما تريدون من متاع .

أو لتتفكروا فى ذلك فيرشدكم ويهديكم تفكركم إلى توحيد الله وتمجيده .

١١ - (وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) :

هذه الآية الكريمة استمرار وامتداد لبيان أنعم الله وآلائه عليهم فبين لهم أنه - تعالت عظمته - نزّل من السحاب ماء بمقدار معلوم حسب إرادته ومشيئته الحكيمة ، لا هو بالماء القليل الذى تشق أو تستحيل معه الحياة ، ولا هو بالكثير الذى يتلف ويؤذى ، بل قد يقتل ويفنى ، وإنما هو بحسب ما يحتاجه الناس لهم ولدوابّهم واستنبات الزرع من أرضهم ، ولذا قال تعالى : (فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً) أى : فأحيينا به أرضاً قحلاء جرداء حيث جعلناها تنبت الزرع والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، قال تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ»[1] (كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) أى : مثل إحياء الأرض الجرز التى لم يكن فيها كلأ ولا نبات ثم أنبتت من كل زوج بهيج أى مثل هذا الإخراج والإحياء نخرجكم من قبوركم أحياء وننشركم بعد موتكم ، وما ذلك على الله بعزيز فهو - سبحانه - خلقكم بدءاً ، وكما بدأكم تعودون .

١٢ - (وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) :

أى : وهو الذى - جل شأنه - خلق الأصناف كلها من جبال متنوعة الألوان والأحوال والأحجام ، إلى أناس يختلفون فى ألوانهم وألسنتهم ، إلى حيوان تتباين أنواعه ، إلى عوالم فى البر والبحر وفى السموات وفى الأرض ، لايعلم حقيقتها إلا هو - سبحانه - (وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) ومنّ عليكم وسخر وأجرى لكم من السفن ما يحملكم فى جوفها ، وذلل لكم الأنعام من الإبل وغيرها ما تركبونه وتعلون ظهره .

١٣ - (لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) :

أى: لتستقروا على ظهورها وتتمكنوا منها ثم تذكروا بقلوبكم وألسنتكم نعمة ربكم وعطاءه لكم وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، أى: تجعلون ألسنتكم ترجمانا على ماملأ

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٦٣

قلوبكم معلنا ما انطوت عليه جوانحكم ، فتقولون بلسان ذاكر عن قلب شاكر : تنزهت وتقدست يا ربنا عن أي وصف لا يليق بك ، أنت الذى ذللت لنا هذه المخلوقات التى تفوق قدرتنا ويستعصى علينا قيادها ، فلو أردت لمنعت حركة السفن فلا تغادر مكانها ولا تبرح موضعها كما قال تعالى : « إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ »[١] ولو شئت ألا تمكننا من هذه الدواب والأنعام التى لا حول لنا معها ولا قوة إلا بك — لو شئت — لفعلت ولكنك يسرتها لنا وملكتنا أمرها ، أخرج أحمد وأبو داود والترمذى وصححه ، والنسائى وجماعة عن على — كرم الله وجهه — أنه أتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله — ثلاثاً ، والله أكبر — ثلاثاً (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) سبحانك لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك فقيل له : عمَّ تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلتُ ثم ضحك فقلت : يا رسول الله ممَّ ضحكت ؟ فقال « يتعجب الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لى فيقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » كما روى أن رسول الله ﷺ كان يقول أيضاً : « اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا السفر ، واطْو لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا » وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « آيبون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون » : كما روى الإمام أحمد وغيره أنه — عليه الصلاة والسلام — قال : « ما من بعير إلا فى ذروته شيطان فاذكروا اسم الله — تعالى — عليه إذا ركبتموه كما أمركم » وظاهر النظم الكريم أن تذكُّر النعمة والقولَ المذكور لا يخصان الأنعام بل يشملان الأنعام والفلك ، وذكر عن بعضهم أنه يقال عند ركوب السفينة : « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »[٢] ويقال عند النزول منها : « اللهم أنزلنا منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين » .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ٣٣ .

(٢) سورة هود ، من الآية ٤١ .

وقيل المراد من النعمة فى قوله تعالى : (ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ) : هو الهداية للإسلام وتفضله - سبحانه - علينا برسول الله - عليه الصلاة والسلام - وجعلنا خير أمة أخرجت للناس.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مِجّلز قال : رأى الحسين بن على - رضى الله عنهما وكرم وجهيهما - رجلا يركب دابة فقال :سبحان الذى سخر لنا هذا ، فقال الحسين : أو بذلك أُمِرْتَ . فقال الرجل فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذى هدانا للإسلام ، الحمد لله الذى مَنَّ علينا بمحمد ﷺ ، الحمد لله الذى جعلنا خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) .

(وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) أى : وما كنا أبدًا مطيقين ذلك ولا قادرين عليه ، فأنت ياربنا بيدك نواصى الأمور .

١٤ - (وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) :

أى : وإنا لراجعون وصائرون إلى الله ربنا بعد مماتنا ، وفى ذلك تنبيه للعاقل الأريب أن يتخذ من أمور الدنيا عبرة يعتبر بها وينظر من خلالها إلى الآخرة ، فإذا ركب الأنعام والفلك ذكر ركوبه ورحيله إلى الآخرة ، وإذا تزود للدنيا تنبه إلى زاد الآخرة ، وهو التقوى « وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ »[1] وإذا تزين بلباس الدنيا دفعه ذلك إلى أن يتحلى ويتجمل بالتقوى لباس الآخرة « وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »[2] .

(وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾)

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٧

(٢) سورة الأعراف من الآية ٢٦

المفردات :

(جُزْءًا) : أى ولدًا .

(لَكَفُورٌ) : لشديد الكفر .

(مُّبِينٌ) : ظاهر الكفران أو مظهر له .

(وَأَصْفَاكُم) : وآثركم واختار لكم .

(بُشِّرَ) : أُخبر .

(مَثَلاً) : مماثلا وشبيها .

(كَظِيمٌ) : مملوءٌ بالكرب والغم .

(يُنَشَّؤُاْ فِى الْحِلْيَةِ) : يربى ويَشِبّ فى الزينة .

(فِى الْخِصَامِ) : فى الجدال .

(غَيْرُ مُبِينٍ) : غير قادر على إظهار حجته .

التفسير

١٥ - (وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) : أى نسب هؤلاء الكافرون إلى الله الولد وجعلوا هذا الولد من خلقه وعباده ، وهذا دليل على عنادهم وأنهم مناقضون لما يقولون ، حيث اعترفوا بأن الله - جلت قدرته - خالق السموات والأرض ، ثم وصفوه - سبحانه - بصفات المخلوقين التى تناقض كونه خالقا للسموات والأرض وخالقًا لما فيهما ، وهذا يدل على فرط جهلهم وسخافة عقولهم ، فربنا - سبحانه - لا تناله الوحشة فيحتاج إلى أنيس ، ولا يصيبه الذل فيتعزز ويتقوى بولى أو نصير ، ولا يعتريه الضعف فيفتقر إلى معين ، ولا يموت فيحتاج إلى من يرثه بل إنه - جل شأنه - الغنى فلا يفتقر ، العزيز فلا يذل ، القوى فلا يضعف ، الباقى فلا يعتريه فناء وصدق ربنا القائل : «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ »[1] وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن هو ولد له كما قيل : أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض ، والمقصود من الجزء هنا البنات ، ولهذا عقبه الله بقوله :

(١) سورة الإسراء : من الآية ١١١ .

(أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ) (إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) أى : إن هذا الصنف والنوع من المخلوقات المنكر لأنعم ربه أشد الإنكار مبالغ فى ذلك ، يبدو ذلك الإنكار منه واضحا جليا أو يعلنه ويجاهر ويذيع به .

١٦ - (أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ) :

أى : بل أتخذ لنفسه - سبحانه - ممن خلقه أخسّ النوعين شأنا وأدناهما منزلة ، وهو البنات وآثركم واختار لكم أفضلها وهو الذكور مع أنكم أشد خلق الله نُفُورًا من الإناث وأمقتكم لهن حتى بلغ بكم المقت أشده ، واستبد بكم البغض فاقترفتم فى حقهن أبشع أنواع التنكيل ، إنكم وأدتموهن ودفنتموهن أحياء ولم تتحرك فى قلوبكم رحمة الأبوة ولم تتردد فى جوانحكم عواطف الإنسانية إنكم بزعمكم هذا واقترائكم قد فقدتم الحياء كله فلم تخجلوا من الشطط والجور فى القسمة التى صورها فكركم السقيم وعقلكم المريض .

١٧ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) :

فى هذه الآية يصور الله حالهم وشأنهم أنهم إذا ما أُخْبِرَ أحدهم أنه قد ولد له أنثى ، إذا أخبر بذلك اربَدّ واغتم واسودّ وجهه من سوء ما بشر به إن بعض هؤلاء السفهاء كان يغاضب زوجه إذا ولدت أنثى . روى أن بعضهم هجر لذلك البيت الذى فيه امرأته فقالت :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

١٨ - (أَوَمَن يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) :

فى هذه الآية تكرير لإنكار الله عليهم زعمهم أنه - تعالى - اتخذ لنفسه بنات وأصفاهم بالبنين أى : أو جعلوا لله - تعالى - مَن شأنه أن يتربى فى الزينة من الذهب والفضة والحرير ونحوها مع أنه فى الجدال غير قادر على تقرير دعواه بالحجة والبرهان ، ولذا يلجأ إلى البكاء إذا عجز عن الدفاع ، أيليق أن ينسب هذا الصنف إلى الله تعالى ؟ ألا ساء ما يحكمون . إن زعمهم هذا يدل على خفة أحلامهم وسفاهة عقولهم .

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(جَعَلُوا) : سَمَّوا .

(أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) : أحضروا خلق الله الملائكة فشاهدوهن إناثا .

(سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) : ستسجل فى ديوان أعمالهم .

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : ما هم إلا يظنون ويكذبون .

(أُمَّةٍ) : دين وملة وطريقة .

(مُتْرَفُوهَا) : المنعمون المنغمسون فى الشهوات .

التفسير

١٩ - (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) :

أى : إن هؤلاء المشركين سَمُّوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وقد أنكر عليهم ذلك السفه والجهل ووبخهم على افترائهم فقال - جل شأنه - : (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) :

أي : أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثا ؟ إنهم لم يشهدوا خلقهم ، ولم يقفوا على أمرهم حتى يحكموا هذا الحكم ، إذ لا سبيل إلى معرفة أنوثة الملائكة إلا عن طريق المشاهدة ولم يشاهدوا خلقهم ، فلم يبق إلا طريق العقل أو النقل . والعقل بدوره عاجز وقاصر عن معرفة ذلك قطعا ، لأن هذا الأمر ليس من الأمور التى يحكم فيها العقل ولم يأت بها النقل فدعواهم هذه لا سند لها من رؤية أو عقل أو نقل وقد هددهم الله وتوعدهم - سبحانه - بقوله : (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) : أى : أنها ستسجل وترصد فى صحائف أعمالهم قال - تعالى - (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)[1] (وَيُسْأَلُونَ) : عن دعواهم سؤال تقريع وإهانة ، ويحاسبون على ذلك حسابا ينتهى بالعذاب الأليم ، لأن هذه الدعوى ما هى إلا افتراء على الله وفحش فى حقه - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

٢٠ - (وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَٰنُ مَاعَبَدْنَاهُم مَّالَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) :

وقال الكفار : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناهم ، ولكننا عبدناهم بمشيئته وإرادته ، ويبنون على ذلك أنهم ما داموا قد عبدوا الملائكة بإرادة الله ومشيئته فلا يعاقبهم الله على ذلك لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا على مقتضى مشيئة الله . فرد الله عليهم بقوله : (إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) : أى ما هم إلا يتوهمون ويتقولون على الله زورا وبهتانا بدعوى أنه - تعالى - راض عن عبادتهم للملائكة فإنه - تعالى - واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، وقد بين لهم ذلك بآياته الكونية ، وبرسالات رسله ، ولذا عقبه بقوله :

٢١ - (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ) :

أنكر الله - سبحانه - على المشركين عبادتهم للملائكة بلا دليل ولا برهان وأبطل دعواهم أى : بل أنزلنا عليهم وجئناهم بكتاب من قبل القرآن أو من قبل الرسول ﷺ نطق بصحة ما يدعون من هذا الباطل فهم بهذا الكتاب متمسكون وعليه يعولون ؟ لم يثبت أن لديهم كتابا بذلك يستمسكون به .

٢٢ - (بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) :

---

(١) سورة «ق» الآية ١٨

هذا إبطال لما يزعمون ، أى أنهم لم يأتوا بحجة أو دليل من النقل أو العقل يؤيد ما ذهبوا إليه وزعموه ، بل إنهم اعترفوا بأنه لا سند لهم ولا حجة لديهم ولا أثارة من علم عندهم سوى أنهم قلدوا آباءهم وأسلافهم فيما اعتقدوه ، وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على ملة وطريقة وإنا تابعناهم وسايرناهم على نهجهم وطريقتهم ، وهؤلاء بهذا التقليد قد تركوا التبصر والتدبر فيما يحيط بهم من آيات بينات وحجج واضحات تملأ السموات والأرض بل إنها في أنفسهم أفلا يبصرون ! ولو تأملوا لهداهم ذلك إلى أن الله - جلت قدرته - هو الحقيق أن يعبد وحده دون سواه ، وأن ينزه عن الأولاد ذكورًا أو إناثا .

٢٣ - (وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) :

أى : وكما سار هؤلاء الكفار على نهج آبائهم وطريقتهم فى عبادة غير الله ولم يأتوا بدليل ولا حجة تؤيد ما زعموا ، كذلك كان الشأن بالنسبة للأمم السابقة ، أى إن هؤلاء ليسوا بدعاً فى هذا الزعم الكاذب ، فما بعثنا قبلك من نذير يحذر قومه مغبة كفرهم وضلالهم ، ويدعوهم إلى توحيد ربهم إلا قال مترفو هذه الأمم الذين أبطرتهم النعمة وأعمتهم الشهوات عن النظر فيما جاء به المرسلون وأنفوا أن يكونوا تبعاً لغير شهواتهم قالوا : إنا وجدنا آباءنا وأسلافنا على دين وطريقة وإنا مقتدون ومتأسون بهم ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى طلب الحق والوقوف عنده بل آثروا الدعة والنعيم فى الدنيا ، ولم يتفكروا فيما يصيبهم من خزى الآخرة وعذابها .

وتخصيص المترفين بالذكر مع أن غيرهم مثلهم فى عبادتهم وتقليدهم لآبائهم - تخصيصهم بالذكر - لأنه يفيد بطريق الأولى أن غيرهم ممن هم دونهم تبع لهم .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٢٠٧٨ س ١٩٨٧ - ٤٠٠٠ر٢٥



